الإتجاهات المثالية
في الفلسفة الأمريكية المعاصرة

م.د. ساره خزعل محمد
قسم الفلسفة / كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية
drsarah85@uomustansiriyah.edu.iq

Abstract:

The traditional Western idealist philosophy did not end at the borders of the past centuries, but rather it was born, grew, and nurtured in the soil of the New World (America), and formed many diverse trends in its ideas and proposals regarding idealism.

Many American philosophers and professors of philosophy at American universities have paid special attention to reviving The legacy of idealist philosophies in their writings, lectures, and intellectual seminars, especially "Higlio Saint Louis." However, their approach was not purely idealistic in the conventional sense, the return of all that is realistic to the absolute spirit, and the separation between the world of higher metaphysical stability and the world of lived change.

Rather, their approach was mixed with the English experimental spirit, and with the natural and evolutionary sciences of Darwinism, so they interpreted the divine existence and the world.

The natural is in relation to the divine experience compared to the human experience. Despite this, they were presented in the American academic arena as idealistic philosophers, belonging to idealistic doctrines. They tried in some way to give an idealistic character to American philosophy in order to strip it of at least a small part of its material realism.

الخلاصة

يتضمن البحث أولى اتجاهات الفلسفة الأمريكية ألا وهي الاتجاهات المثالية، التي تقسم بدورها الى اتجاهين: الاتجاه المثالي اللاهوتي والاتجاه المثالي اللا لاهوتي، التي عمد أغلب ممثليها على تفسير الأشياء الما ورائية كفكرة الله، ووجود العالم والنفس البشرية تفسيراً عقلانياً اعتماداً على الفلسفات المثالية العقلانية التقليدية كفلسفة افلاطون وكانط وهيجل وباركلي، والتي مزجوها بروح التجربة الواقعية معتمدين بذلك على العلم الطبيعي النيوتني والمنهج التطوري الداروني وتجريبية فرنسيس بيكون وجون لوك وديفيد هيوم وغيرهم، التي لاقت انتشاراً واسعاً في الوسط الفكري في العالم الجديد. وقد نشأت المثالية الأمريكية نشأة بروتستانتية التي يمثلها ثلة من البيورتانيون الوافدون من انجلترا، وكانت مثاليتهم تملأها الروح الدينية الكالفينية والمثل الافلاطونية. وتطورت الحركة المثالية في النصف الاول من القرن التاسع عشر بفضل بعث حركة «سان لويس» الى ألمانيا، حيث تأثروا تأثيراً كبيراً بالمثالية الهيجلية المطلقة ونقلوها الى أمريكا حتى أطلق عليهم «هيجليوا سان لويس»؛ فضلاً عن شعراء كولبريدج الذين حاولوا نقل الفلسفة المثالية من انجلترا الى أمريكا عن طريق شعرائها. وفي الفترة المعاصرة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر شهدت الساحة الفكرية في العالم الجديد انتشاراً واسعاً للمثالية لاسيما المثالية الكانطية، حيث كان أهم ممثليها من الاساتذة الاكاديمين الذين ينتمون الى الجامعات الكبرى في أمريكا أمثال جامعة نيويورك وهارفارد حتى أصبحت المثالية - لاسيما الكانطية - درساً أساسياً في التعليم الجامعي. وفيما بعد فقد تمايزت الفلسفة المثالية الأمريكية المعاصرة الى اتجاهات محددة، كلاً منها له رؤى فلسفية مثالية خاصة أهما: اتجاه الفلسفة المثالية اللاهوتية الذي يضم كلاً من: المثالية الدينامية والتطورية والشخصانية والمثالية المطلقة؛ واتجاه الفلسفة المثالية اللا لاهوتية أو التأملية الموضوعية التي يمثلها كرايتون.

المقدمة

إن الفلسفات القديمة لم تمت، وإنما هي ذهبت الى أمريكا لتبدأ فيها من جديد. والفلسفة المثالية واحدة من فلسفات التراث الغربي - الأوربي التقليدي القديم التي تم إعادة احياؤها وغرسها في تربة العالم الجديد (أمريكا), وتجديد مضمونها لتتناسب مع حياة الفكر في هذا العالم؛ وهذا الإحياء إنما جاء على يد ثلة من المفكرين والفلاسفة الأمريكان، وجمعٌ من الأساتذة الاكاديميين في الجامعات الامريكية، الذين سئموا من تلك تطورات الثورات الصناعية المادية المتمثلة بالنظم الرأسمالية والتقنية التي بدت تسيطر وتتغلب على ثقافتهم الروحية، التي عملت على تشيؤ الفرد وتسليعه واستلاب ذلك الجانب الشفاف المثالي منه، وبالتالي عملت على اغتراب الفرد وتغييبه في ظل ثقافة المال والآلة والتقنية، التي بدت كمحدد أساس لوجود الإنسان كذات وكينونة وهوية، وبالتالي عملت على جعل العقل الانساني كآلة مادية، يتجاوب مع كل ما من شأنه أن يبعث بروح الفرد الى القلق والبؤس، وبالتالي الضياع للوجود الإنساني الروحي الحقيقي، والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يبعث الاطمئنان والأمن في الروح الإنسانية.

والمثالية التي تم اعادة بناءها في العالم الجديد ليست بجديدة علينا، إذ أنها إنما تنطلق من المثاليات القديمة بالدراسة والنقد والتحليل وهي المثالية الافلاطونية، والمثالية اللامادية الباركلية، والمثالية الالمانية: الكانطية الترنسندنتالية والهيجيلية المطلقة، لاسيما الأخيرتان اللتان انبثقت منهما في العالم المعاصر وبالضبط في النصف الأول من القرن العشرين المثاليتان الكانطية والهيجلية المحدثتان، في اسكتلندا وانجلترا، بوصفها رد فعل على الوضعية، وكان خير من يمثلها من الفلاسفة: سترلنج، كيرزد، جرين، برادلي، بوزانكويت، هالدين، ماكتاجرت، تيلور وغيرهم.

وهذا يدل أن الفلسفة المثالية - بخاصة الألمانية - لم تفنى ولم تتوقف في عالم معين أو في زمان ما، وإنما استمر صداها واثرها في الفترة المعاصرة الى فكر فلاسفة العالم الجديد (امريكا), وكونت الكثير من الاتجاهات المتنوعة في افكارها وطروحاتها في المثالية، فكثير من الفلاسفة الامريكان واساتذة الفلسفة في جامعات أمريكا قد اولوا عناية خاصة بإعادة احياء تراث الفلسفات المثالية في مؤلفاتهم ومحاضراتهم وندواتهم الفكرية لاسيما «هيجليو سان لويس»,

ولكن، لم يكن اتجاههم المثالي خالص بالمعنى التقليدي المتعارف عليه، برد كل ما هو واقعي الى (الروح المطلق), والفصل ما بين عالم الثبات الميتافيزيقي الأعلى عن عالم التغير المعاش، بل كان اتجاههم ممزوج نوعاً ما بالروح التجريبية الانجليزية، وبالعلوم الطبيعية والتطورية الدارونية، ففسروا الوجود الالهي والعالم الطبيعي نسبة الى التجربة الإلهية المقاسة على التجربة البشرية، رغم ذلك فقد قدموا في الساحة الاكاديمية الامريكية المعتبرة على أنهم فلاسفة مثاليون، ينتمون الى المذاهب المثالية، حاولوا بطريقة ما اضفاء الصبغة المثالية الروحية على الفلسفة الأمريكية لتجريدها على الأقل من جزء بسيط من واقعيتها المادية. وعليه فأن الاشكالية التي تخص دراستنا تتضمن هل هناك وجود لفلسفات مثالية روحية بحته في بلاد أساس نظامها الرأسمالية والمنفعة كأمريكا أم أنها فقط تشتمل على الفلسفات العملية الواقعية التي تمثلها الفلسفة البراجماتية؟ وقد تضمن البحث:

أولاً: النشأة الأولى للفلسفة المثالية في أمريكا: (المثالية البيوريتانية - وافلاطوني جامعة كامبردج).

ثانياً: احياء المثالية في الفلسفة الأمريكية المعاصرة.

ثالثاً: اتجاهات الفلسفة المثالية المعاصرة في أمريكا.

أولاً: الفلسفة المثالية اللاهوتية وتتضمن:

أ. المثالية الديناميكية التي يمثلها جورج سلفستر موريس.

ب. المثالية التطورية التي يمثلها ألفرد

هـ. لويد وجوزيف لوكونت - وجون إلوف. بودين

ج. المثالية الشخصانية التي يمثلها جورج

هـ. هوفيسون - وبوردن باركر بوين

د. المثالية المطلقة التي يمثلها جوزايا رويس

ثانياً: المثالية غير اللاهوتية أو المثالية التأملية –الموضوعية التي يمثلها جيمس. أ. كرايتون.

أولاً: النشأة الأولى للفلسفة المثالية في أمريكا

أن الفلسفة المثالية الأمريكية، قد انطلقت في صورتها الاكاديمية، على وجه التحديد، بصفة مباشرة نقلاً عن الفلسفات الوافدة (الانجليزية والالمانية), وبصفة غير مباشرة، باستيراد الأفكار الفلسفية من الخارج(اليونانية - الانجليزية والألمانية)(١). وأنها تتمثل بنوعين هما:

١. المثالية البيوريتانية

عند تعقب الأصول البعيدة للتأمل الفلسفي - المثالي في أمريكا وجد أن أصولها الأولى تعود الى المهاجرون الجدد من إنجلترا، الذين كانوا من اتباع (الكالفينية)(٢)), والذين كان يصطلح على تسميتهم ب البيوريتانيين، وهؤلاء كانوا مثاليين لكن ليس بالمعنى الفلسفي للفظ، لأن كان هدفهم الأساس هو تنظيم حياتهم وفق المبادئ الدينية والأخلاقية التي آمنو بها. والكالفينية في انجلترا كان لها رؤيتها الخاصة للعالم وللحياة وللإنسان وخلاصه، لذا فإن الانتقال بهذه الرؤية الى العالم الجديد - أمريكا - كان يتطلب قدراً من المواءمة، وبما أن العالم الجديد منذ تأسيسه أقيم على حد العقائد الدينية، فالحالة الأولى لهؤلاء البيوريتانيين كانت تعبر تعبيراً مثالياً عن مبادئ الإصلاح الكالفيني على الأرض الجديدة، التي تطورت بفضلهم لتتناسب مع وضع العالم الجديد(٣)؛ رغم ذلك فهنالك الكثير من المفكرين والدارسين للفلسفة وعلماء اللاهوت قد ساعدوا في الحث على التأمل الفلسفي المثالي، من بينهم الفيلسوف الانساني الفرنسي والمنطقي الشهير: بطرس راموس(١٥١٥ - ١٥٨٢ (, الذي كانت معظم أفكاره ذات صبغة مثالية افلاطونية(٤). وكانت مساهمته الفلسفية الرئيسة في إحياء (الجدل الافلاطوني) وصياغته صياغة

(١) ينظر: جينوفا، أ. ك. : البناء الأمريكي للفلسفة المعاصرة، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠, ص٤٢٧.

(٢) الكالفينية: مذهب ديني منبثق عن فكر اللاهوتي الفرنسي البروتستانتي جان كالفن(١٥٠٩ - ١٥٦٤), ويقوم هذا المذهب اساس الاصلاح الديني، وينطلق من التوراة والانجيل، مهمته تعظيم الله واجلاله. شعارهم هو «المجد لله وحده» وقد سمي معتنقي المذهب الكالفيني بالبيوريتانيون أي الطهريين، وجاءت هذه التسمية لان اساس الكالفينية هي الخلاص الالهي المقدر للإنسان الذي يمكن ان يثبت بحياته الشخصية انه انسان اصطفاه الله وطهره. ينظر: الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج٥, المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ب - ت، ص١٣٤.

(٣) ينظر: مرقس، سمير: رسالة في الأصولية البروتستانتية، مكتبة الشروق، القاهرة، ط١, ٢٠٠١, ص٥.

(٤) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة من (بنتام الى رسل), مج٨, محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، القاهرة, ٢٠٠٩, ص٣٦٧ - ٣٦٨.

منهجية، وقد اعتبره أساسياً وأعظم فائدة من منطق البرهان عند أرسطو والمدرسيين(١).

وأولى المدارس الأمريكية التي اولت اهتماما واسعاً بدراسة الفلسفة المثالية الافلاطونية هي المدرسة البيوريتانية التي كانت في ولاية «نيوانجلند» الأمريكية، التي تعود أصولها الى عصر النهضة في القرن السابع عشر وبخاصة الى «راموس» الذي كان متشيعاً للنزعة الإنسانية والأفلاطونية(٢).

٢. مثالية افلاطوني جامعة كمبردج:

افلاطوني كمبردج هم مجموعة من علماء اللاهوت الفلسفي من الانجليز، الذين كانت تغلب عليهم النزعة الطهرية، عمدوا على احياء فلسفة أفلاطون المثالية، اتخذوا جامعة كمبردج مركزاً لها، ومن اشهرهم المنطقي الانجليزي سير وليم تمبل(١٥٥٥ - ١٦٢٧)(٣)؛ الذي يعود له الفضل الكبير في أدخال منهج راموس الى جامعة كمبردج في انجلترا سنة (١٥٨٠), وساهم في نقل المثالية الافلاطونية من جامعة كمبردج الى ولاية نيوانجلند الامريكية، على يد مجموعة من المفكرين الفلسفيين والدينين الذين كانوا يأملون في التوفيق بين الأخلاقيات المسيحية وإنسانية عصر النهضة، والدين مع العلم الجديد، والايمان بالعقلانية. حتى غدا المنهج الافلاطوني المثالي - بالنسبة لمعتنقيه من البيوريتانية - بمثابة إنجيل لهم وأساساً لهم ولحججهم، وخير سلوى لعقيدتهم، ونظرية دستورية لحكوماتهم الدينية(٤).

ولم تبقى مثالية جامعة كامبردج مثالية افلاطونية محضة، لاسيما بعدما اقترنت اقتراناً وثيقاً بنشأة «العلم النيوتني» وحين غدت دراسات الفيلسوف «فرنسيس بيكون» والفيلسوف «جون لوك» واتباعهم في متناول الجميع في «نيوإنجلند» سنة(١٧٠٠), فسرعان ما اكتسح العلم الطبيعي والتجريبي في كتابات راموس الافلاطونية، التي كان لها الأثر أن تكون بدايات الفلسفة الأمريكية مزيج مزدوج من المثالية الافلاطونية والتجريبية الانجليزية التي يمثلها بصورة خاصة الفيلسوف

(١) ينظر: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الامريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة,١٩٦٤, ص١١ - ١٢.

(٢) ينظر: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الامريكية، ص١١ - ١٢.

(٣) ينظر: ري، جوناثان، وأرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، مراجعة زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، ط١, القاهرة, ٢٠١٠, ص ٥٨.

(٤) ينظر: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الامريكية، ص١١ - ١٢.

«جون لوك», الذي قيل عنه أنه كان «أباً الفلسفة الامريكية»(١).

وهكذا فقد كانت التجريبية التي قال بها الفيلسوف جون لوك، ثم الفيلسوف ديفيد هيوم، تتلاءم مع المثالية الافلاطونية وبشكل جيد على الأرض الأمريكية ومع (اللامادية)(٢)) على طريقة الفيلسوف «جورج باركلي», ومع «الحس المشترك»(٣)) الذي قال به الفيلسوف الاسكتلندي «توماس ريد», حتى لو لم تكن الجرعة قوية، فالسبب أن هذا الكل الذي كون الفلسفة الأمريكية قد تم صياغته بقشرة من «المُثل الافلاطونية»(٤).

ومن أهم فلاسفة أمريكا المثاليين في الحقبة الأولى هم:

أولاً: صاموئيل جونسون (١٦٩٦ - ١٧٧٢): وهو أول فيلسوف أمريكي، كانت فلسفته «مزيج ساذج من افلاطونية طهرية ومن لامادية بيركلية»(٥), تأثر جونسون براموس، وبالفيلسوف باركلي نتيجة لقاءه به أبان زيارته لولاية رود ايلند الامريكية، حتى أنه اهدى الى باركلي كتابه «مبادئ الفلسفة» الذي ظهر عام (١٧٥٢). لكن على الرغم من أنه تأثر بشدة بلامادية باركلي، فإنه

(١) ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ترجمة جورج كتورة والهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان, ٢٠٠٩, ص ٤٧.

(٢) اللامادية: وهو مذهب مثالي قال به الفيلسوف الايرلندي جورج باركلي(١٦٨٥ - ١٧٥٣), الذي يوضح بأن كل ما يمكن معرفته من الاشياء المادية– او كل ما هو موضوع للتجربة - فهو في اصل طبيعته أو في جوهره شيء عقلي. فالجواهر المادية ما هي الا افكاراً موجودة بالعقل الانساني، أي ان وجود الاشياء معناه اننا ندركها، او ان الوجود هو الادراك عند باركلي، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، لأنه لما وجد ان المدركات الحسية ليست من اختراع العقل الذي يدركها، بل هي مستقلة عنه، حاول ان يفسرها بانها موجودة في العقل الالهي. ينظر: كوليه، أزفلد: المدخل الى الفلسفة، ترجمة ابو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة, ١٩٤٢, ص٢٩١ - ٢٩٢.

(٣) الحس المشترك: هو تلك المنظومة أو المجمل الكلي من المعطيات الحسية (الآراء - العادات) التي تمكنّ عامة الناس التصرف بموجبها بكافة شؤون الحياة اليومية. ويستخدم هذا المبدأ كنقيض للبناءات التأملية المجردة للفلسفة المثالية. ويعد الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد(١٧١٠ - ١٧٩٦) أول مؤسس لمدرسة الحس المشترك، الذي اتم دراسته في مسقط رأسه وعمل أمينا لمكتبة الجامعة الى عام ١٧٣٦. ينظر: طرابيشي، جورج: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط٣, ٢٠٠٦, ص٣٣٥ - ٣٣٦. وينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ومراجعة صادق جلال العظم وجورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت, (ب. ت), ص١٨٣.

(٤) فلاور، اليزابث: حوار بين العلاقات الهامة بين الواقعيين والبراجماتيين، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠, ص ١٨٦.

(٥) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص١٦ - ص٢٢.

لم يكن على استعداد لأن يقبل وجهة نظره التي تقول أن المكان والزمان علاقتان جزئيتان بين أفكار جزئية، وأن المكان والزمان المتناهيين هما، ببساطة، فكرتان مجردتان. لقد أراد أن يبقى على نظرية نيوتن - وكلارك([١]) عن المكان والزمان المطلقين واللامتناهين، على أساس إن الإقرار بوجود كثرة من ارواح متناهية يتطلبهما، فإذا لم يكن هناك مكان مطلق، مثلاً، ستتفق كل الارواح المتناهية مع بعضها. وفضلاً عن ذلك، حاول جونسون أن يضع «نظرية الأفكار» عند باركلي في صياغة افلاطونية، بإثبات أن كل الأفكار هي نسخ من نماذج أصيلة موجودة في العقل الإلهي. وبمعنى آخر، بينما رحب جونسون بلا مادية باركلي، فإنه حاول أن يجعلها تتلائم مع التراث الافلاطوني الموجود من قبل في الفكر الأمريكي[٢].

ثانياً: جوناثا ادواردز(١٧٠٣ - ١٧٥٨) الفيلسوف اللاهوتي، وهو تلميذ صاموئيل جونسون، الذي كان متأثراً تأثراً كبيراً بالفلاسفة الاوروبيين أمثال «جون لوك» «وافلاطوني كمبردج», و»نيقولاس مالبرانش»([٣])[٤], وحاولت فلسفته، ومن دون أن تكون انتقائية، التوفيق بين لوك، ونيوتن، والمذهب الطهري والمثل الافلاطونية[٥].

وكان ادواردوز يمثل افلاطونية كمبردج التي تعد دعامة لفلسفة نيوتن، وأساس (للبيوريتانية). فكان أشد جميع البيوريتان اهتماماً بالفلسفة الافلاطونية فقد درس افلاطونية راموس وكمبردج في جامعة (يال) على يد صموئيل جونسون. فيقول بصدد المثالية: «أن المثالية تفضي بالناس الى أن ينظروا الى الأشياء المادية على أنها ظلال للموجودات وأن يروا جمال الله وفنه حين يكون بين

(١) كلارك صاموئيل(١٦٧٥ - ١٧٢٩): فيلسوف ولاهوتي انجليزي درس الفلسفة الديكارتية في كمبردج، ثم انتمى الى السلك الكهنوتي الانغليكاني، له رسالة في وجود الله وصفاته موجهة بالضد من هوبز واسبينوزا. ومراسلات مع لايبنتز حول المكان والزمان تبنى فيها موقف نيوتن الواقعي ضد مثالية لايبنتز، مؤكداً أن الزمان والمكان من صفات الله وأدواته. ينظر: طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، ص٥٢٥.

(٢) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٣٦٩.

(٣) نقولا مالبرانش(١٦٣٨ - ١٧١٥): فيلسوف فرنسي من الفلاسفة المحترفين في عصر ديكارت، ويعد من اشهر الاوغسطينيين، وملخص مذهب مالبرانش يقول أن الاشياء الفردية ما هي الا تعينات للجوهر المادي الواحد، والعقول الفردية ليست غير تعينات لجوهر لامادي، هو الله الذي لا يخلق الاشياء الموجودة فحسب، بل يحتويها جميعاً في داخله. ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص٣٤١ - ٣٤٢. وينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٤٤٥.

(٤) ينظر: رشوان، محمد مهران، مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة، القاهرة, ١٩٨٤, ص٣٩.

(٥) ينظر: ديلودال، جيرار، الفلسفة الأمريكية، ص٥٠.

جزء من الأجزاء وسائر الأجزاء تناسب ملائم»[١]. وقد كانت هذه المثالية - التي قال بها ادواردوز - معارضة لمثالية باركي اللامادية حيث أن نظريته عن الله فاطر الكون والكائنات، لا تمثل فقط عودة الى الكالفينية الارثوذكسية، وإنما تمثل ايضاً حجة ايجابية لمذهب وحدة الوجود المستند الى نيوتن ولوك. ولم تنكر هذه النظرية وجود المادة، وإنما تزعم أن المادة توجد وتعمل في الله. ولكنها أنكرت وجود الجوهر أو الجواهر ذلك لأن الله هو أكثر من جوهر، هو الموجود الخالق باستمرار[٢].

ومن جهة أخرى، كان ادواردوز شديد الصلة برجال لاهوت العهد الاسكتلندي، مما جعله يتهيأ تهيؤاً لاهوتياً لمذهب التقوى الوافد من القارة الاوربية[٣], وقد تلقى إدواردوز مفتاح البحث التجريبي من «لوك» في اهتمامه بالأفكار البسيطة للإحساس على إنها المصدر النهائي للتفكير، وذهب الى أنه لابد أن تكون التجربة بالله نوعاً من التجربة الحسية بدلاً من أن تكون مفهومة بتبرير وسائله للإنسان كما حاول لاهوتيون عقليون آخرون أن يفهموا فكرة الله[٤]. وفي عام (١٧١٧) صاغ ادواردوز نظريته التجريبية اللاهوتية، عن «الإحساس بالله», أو الوعي المباشر بالامتياز الإلهي، والتي من خلالها يرى، موافقة وجودنا للوجود الإلهي، فالإنسان يعي الله عن طريق صورة من التجربة تماثل التجربة الإنسانية الحسية. فإن إحساس الإنسان الخارق للطبيعة، يخلق الإحساس بسمو الله وتقدير هذا السمو، من خلال فهمنا له. ويعترف ادواردز أن البراهين التجريبية لا تخفف من التأكيد على أن الإنسان يجد سروره في الله، إلا إن حب الله، وهذا التمتع بالله، لا يمكن أن يكون انفعالاً طبيعياً، بل هو يكتسب بالقلب، أنه نوع من الطريق الافلاطوني الذي يقود الى هذا الفهم للأشياء الإلهية الذي يسميه الكتاب المقدس ب»الفهم الروحي»[٥].

وكان ادواردوز أول فيلسوف أمريكي رفض الثنائية الديكارتية:]المكان = الله[, أو كما يقول نيوتن: الكون موجود في الروح الإلهية. وما ينفيه ادواردوز بالمقابل، هو أن الجواهر المخلوقة بإمكانها الاستمرار في الوجود من دون الله، ما يعني أن حفظها في الوجود بواسطة الله: هو خلق

(١) نقلاً عن: شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص١٨ - ٢٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص١٨.
(٤) ينظر: بولر، بول. ف. : الحرية والقدر في الفكر الأمريكي(من إدواردوز إلى ديوي), ترجمة إسماعيل كشميري، مراجعة نور الدين الرازي، مكتبة الانجلو المصرية، مصر, ١٩٧٨, ص٨ - ٩.
(٥) جيرار، ديلودال: الفلسفة الأمريكية، ص٥٢.

متواصل، إن الله يخلقها من عدم في كل لحظة من وجودها. وقد برهن في مؤلفه الأساسي «حرية الإرادة «(١٧٥٤), خلافاً للفيلسوف جون لوك - على أن الرغبة والارادة هما شيء واحد بعينه، فالإنسان لا يرغب ابداً بشيء ما خلافاً لإرادته، إلا أن الإنسان ليس الفاعل الأخير، الله وحده «الفاعل» الحقيقي، وبالتالي فإن الإرادات البشرية موجودة في الإرادة الإلهية، وهذه الإرادات ليست فاعلة إلا في الله. فيه تعالى نحيا، ونتحرك ونحصل على كينونتنا[١].

أما العقل فقد كان من وجهة نظر ادواردوز نعمة أنعم بها الرب على البشر رجالاً ونساءً كي يساعدهم في فهم حقيقة الرب الموحى بها[٢], وإن الفرد لا يدرك عن طريق العقل الخير الأسمى، بل إنه يختار كل ما يراه أو يفهم إنه الخير الأسمى. ومن ثم فإن الإنسان يفعل ما يبدو لفهمه أو لعقله إنه الخير الأسمى، وحيث أن العقل أو الإرادة لا ينفصلان فإن الإنسان هو عين سلوكه، فالإرادة ترتكز على الرغبة، والمسؤولية الأخلاقية للفرد تكمن في الاختيار وليس علة الاختيار[٣]. وقد اعاد إدواردوز بناء افلاطونية راموس المؤسسة على (الفن الإلهي) في صورة نقية للحب الأفلاطوني، وجعله واضحاً غاية الوضوح ذلك لأنه يرى أن هذا «الحب المقدس» ليس شيئاً حسياً أو انفعالياً خالصاً، فهو تجريبي وهو حاسة تجريبية وينبغي يقيناً، ألا نخلط بينه وبين المشاعر الغيبية الدينية - من وجهة نظره -. والتي عرضها في كتابه النقدي «رسالة عن المشاعر الدينية» الذي يخلط به تصوره للعبادة المسيحية بالحس الافلاطوني[٤].

هكذا نجد أن بدايات الفلسفة المثالية الامريكية كانت ذات طابع بيوريتاني، تعمد الى مزج العلوم اللاهوتية بالفلسفة المثالية الافلاطونية بالذات، وهذه كانت أهم الأصول التي توثق لنا البذور الأولى للمثالية في أمريكا، التي لم تتوقف عند هذا الحد بل امتد صداها الى الفترة المعاصرة وباتجاهات وتيارات أكثر وضوحاً وتحديداً، من سابقتها.

(١) ينظر: جيرار، ديلودال: الفلسفة الأمريكية، ص٥٠ وما بعدها.

(٢) ينظر: لامبرت، فرانك: الدين في السياسة الامريكية، ترجمة عبد اللطيف موسى أبو البصل، نمو للنشر، الرياض, ٢٠١٥, ص٩٤.

(٣) ينظر: جلال، شوقي: العقل الأمريكي يفكر(من الحرية الفردية الى مسخ الكائنات), مكتبة الأسرة، مصر, ٢٠١٠, ص٦١.

(٤) ينظر: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الامريكية، ص٢٣.

ثانياً: احياء المثالية في الفلسفة الأمريكية المعاصرة

الحدث الجديد في تاريخ الفكر الأمريكي في القرن التاسع عشر كان ظهور المثالية بمعناها الفلسفي الحقيقي. حيث تعد الفلسفة المثالية الأمريكية بعثاً جديداً وتياراً فكرياً أو يقظة فكرية يسعى لتحقيق النهضة، جنباً الى جنب مع البراجماتية[١]). وقد بدأت الفلسفة المثالية كما بدأت النهضة الاوربية، بنوع من التحرر الفكري من سيطرة الكنيسة، وآمنت بالمثالية الالمانية كقوة لإصلاح الدين والأخلاق الامريكية، فأمنت بالله عن طريق العقل بدلاً من طريق الطقوس[٢]. واحياء المثالية في الفلسفة الأمريكية جاء ايضاً على يد الجماعات المهاجرة الى ألمانيا وانجلترا ومن أهمها:

أ: هيجلو سان لويس

شهدت بداية القرن التاسع عشر انتعاشاً فلسفياً جاء رافضاً للتقاليد الأوربية والاكاديمية السائدة، وجاء هذا على يد المهاجرين الألمان الذين لجأوا الى الولايات المتحدة بعد فشل ثورتهم عام(١٨٤٨). فبفضل الهجرة الألمانية من جهة، ورحلات الدراسة التي قام بها طلاب أميركيون الى ألمانيا - الذين كان بعضهم من تلاميذ الفيلسوف هيجل - من جهة ثانية، دخلت المثالية - لاسيما المثالية الهيجيلية - أكثر فأكثر الى الفكر الأمريكي. والى الشاعر والفيلسوف المهاجر الألماني الذي يدعى «هنري بروكماير»(١٨٢٨ - ١٩٠٦) يعود الفضل في بعث حركة «سان لويس» لدراسة الهيجلية، فبعد دراساته في جامعة «براون» في ظل إدارة «ف. ه. هيدج» الذي دربه على فلسفة هيجل، استقر في مدينة «سان لويس» وهناك التقى ب «وليام ت. هاريس»(١٨٣٥ - ١٩٠٩), و»دنتون ج. سنايدر»(١٨٤١ - ١٩٢٥) واليهما نقل اقتراحه للالتقاء

(١) البراجماتية: كلمة مشتقة من اللغة اليونانية براجما «Pragma» أو براجماتا «Pragmata», وتعني الفعل. أما من ناحية الاصطلاح فتعني: قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتائجها. والبراجماتية كاتجاه يمثل ما وفق بيرس في تسميته «العادة المخبرية للذهن Laboratory Habit of mind»», وقد امتدت لتشمل كل ميدان يمكن للبحث أن يثمر فيه ويعطي نتائج. ويعد «تشارلس ساندرس بيرس» أول فيلسوف براجماتي استخدمها، وذلك حينما فرق بين كلمتي «براجماتي» و»عملي» مستعيراً إياها من الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانْت»(١٧٢٤ - ١٨٠٤).
see: Dewey, John: Essays in Experimental Logic, Dover Publications, N. Y, U. S. A, 1953 , P. 348.

(٢) ينظر: الانصاري، احمد، مقدمة كتاب جوزايا رويس، الجانب الديني للفلسفة، المركز القومي للترجمة، ط٢, ٢٠٠٩, ص٥.

من وقت لآخر لدراسة الفلسفة المثالية لهيجل. وحين استقرت هذه الفلسفة وصارت من صلب التقليد، بات «هاريس» ينظم كل فترة محاضرات عن المثالية الهيجلية في مدرسة كونكورد الصيفية للفلسفة عام (١٨٨٠). وقد اخذت حركة «سان لويس» على عاتقها ترجمة أعمال هيجل وتطبيق نظرياته: الجدل، الأطروحة، النقيض، التوليف وغيرها على المشاكل الأمريكية(١), وقد اهتم هاريس ايضاً بالمثالية الكانطية حتى أنه أصبح واحداً من مؤسسي نادي كانط (١٨٧٤)(٢).

وقد اشتهر هؤلاء المفكرين باسم «هيجليو سان لويس» واصدروا أول صحيفة فلسفية في الولايات المتحدة باسم «صحيفة الفلسفة النظرية التأملية» عام (١٨٦٧)(٣), حررها هاريس، الذي ساهم مع زملاؤه في نشر معرفة بالمثالية الالمانية في أمريكا وكان للمجموعة بعض العلاقات مع انصار «مذهب التعالي»(٤)) في انجلترا، وكان شعارهم يقول: (أن الفلسفة لا تستطيع أن تصنع خبزاً ولكنها تستطيع أن تعرفنا بالله، وبالحرية، وبالخلود)(٥). و»الفلسفة النظرية التأملية»(٦)) كانت تعني بالنسبة لهاريس التراث الذي بدأ بأفلاطون، وبلغ التعبير الأكثر كمالاً عنه في مذهب هيجل، بذلك فإنه دعا الى تطوير للمذهب المثالي وفق الهام الفلسفة الالمانية التي جاءت بعد كانط، ولكن وفق الاحتياجات الأمريكية(٧).

وقد تحدث هاريس في العدد الأول من الصحيفة عن الحاجة الى فلسفة نظرية تحقق ثلاث مهام رئيسية: الأولى، يجب أن تقدم فلسفة للدين تناسب وقت فقدت فيه المعتقدات التقليدية والسلطة الكنسية تأثيرها على عقول الناس؛ الثانية، يجب أن تطور فلسفة اجتماعية وفق المتطلبات الجديدة للوعي القومي، الذي عرف عن المذهب الفردي المحض؛ والثالثة، يجب

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص٨٥ - ٨٦.
(٢) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٣٨٣.
(٣) ينظر: رشوان، محمد مهران: مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص٤٠.
(٤) مذهب التعالي أو الترنسندنتالية: وهو المذهب الذي يقول أن نسبة الله الى العالم كنسبة المخترع الى آلته، أو الوالد الى ولده. ويرى اصحابه ان وراء الظواهر الحسية المتغيرة جواهر ثابتة، أو حقائق مطلقة قائمة بذاتها، ومعرفة الانسان لا تقدر على ان تنفذ الى حقائق العالم المتعالي. ينظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج١, ص٢٩٧.
(٥) كاز، بيتر، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال٢٠٠عام، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتب الأنجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠, ص١٥.
(٦) الفلسفة التأملية: نسق من القضايا الفلسفية التي يستدل عليها دون الرجوع للتجربة الحسية. اعتماداً على قوة العقل المجرد، من اجل الالمام بكل الواقع الموضوعي. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٣٣٨.
(٧) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٣٨٣ - ٣٨٤.

أن تستنبط المضامين الأكثر عمقاً للأفكار الجديدة في العلوم. وفي هذا الميدان قد انتهى عهد المذهب التجريبي البسيط تماماً[١]. اضيفت لهذه المجموعة فيما بعد ترجمات فيتشة وشيلنغ، وشوبنهور، هارتمان، لوتزي وغيرهم[٢]؛ ولكن تميزت هذه النزعة بغياب الصبغة الاسكوتلندية في الحس المشترك ومذهب توماس ريد بالوعي[٣].

ب: شعراء كولبريدج

فضلاً عن هيجلو سان لويس، فقد انتقلت الفلسفة المثالية في مطلع النصف الأول من القرن التاسع عشر، الى انجلترا عن طريق شعرائها، وبخاصة «شعراء كولبريدج» وعن هذا الطريق جاءت الى أمريكا، لكنها لم تكد تنتقل الى أمريكا حتى عُدلت وجددت بما يلائم الايديولوجيا الأمريكية. وهذا العصر يسمى بالعصر الترنسندنتالي الذي جاء بعد «عصر الاستقلال». والذي يمثله فكر رالف والدو أمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) ومقالات هنري ديفيد ثورو([٤]).

وهذه المرحلة تعد وسط بين الاقتباس والانعكاس السافر لفكر أوربا المأخوذ عن كانط و «توماس كارليل»[٥], وبين المواءمة مع حاجات الواقع الجديد ضد مرحلة «عصر التنوير الأمريكي»[٦]. إذ

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٨٣.

(٢) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص٨٦.

(٣) ينظر: كاز، بيتر، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال٢٠٠عام، ص٤٢٧.

(٤) هنري ديفيد ثورو(١٨١٧ - ١٨٦٢): فيلسوف وكاتب وشاعر مثالي أمريكي، تخرج من جامعة هارفارد كان عضواً في جماعة دعاة المذهب المتعالي، التي كان يرأسها أميرسون وقد تشكلت آراء ثورو تحت تأثير الرومانسيين الأوربيين وخاصه كارليل وكانت نظرة ثورو المثالية العامة للعالم المؤمنة بوحدة الوجود ينطوي عليها الطابع الصوفي، فقوانين الطبيعة برأيه تتفق مع العقل الكلي، بما في ذلك القانون الأخلاقي، والغرض من المعرفة هو الحقيقة التي يبلغها الناس عن طريق فهم الواقع الإلهي الذي يحيط بهم. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص١٥٨.

(٥) توماس كارليل(١٧٩٥ - ١٨٨١): هو كاتب ومؤرخ وفيلسوف اسكتلندي من العصر الفيكتوري، وهو من عائلة كالفينية صارمة املت أن يصبح واعظاً. وهو من اتباع مذهب وحدة الوجود ومن اللاأدريين والرومانسيين دافع عن الفلسفة المثالية الالمانية حتى انه طبق على المجتمع نظرية فختة عن نشاط الانسان الخلاق البطولي الذي يعده المحرك الاساس لتاريخ الدولة من اهم مؤلفاته: «البطل وعبادة البطل(١٨٤٠), و»محمد (المثل الأعلى) سنة (١٨٧١). ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٣٨٤.

(٦) عصر التنوير الأمريكي: في الفترة ما بين (١٨٠٠ - ١٧٦٣) فإنها تمثل عصر الثورة وفلسفة التنوير وفيها تم استقلال امريكا المزدوج من اللاهوتية، ومن الفلسفات التجريبية الانجليزية، فبهما اكتسبت امريكا روحاً واصبحت أمة. إذ تم رفع التجربة الدينية الشخصية فوق اعتبارات المعتقد الكنيسي، من خلال التصور المركزي في فلسفة التنوير الامريكية

بعد إن كان التنوير يؤكد على النزعة الفردية مع صبغة دينية، ويؤكد على الحرية الفردية نجد الترنسندنتالية الأمريكية، تنبذ هذا الاتجاه، وتقدم صورة رومانسية عن العالم، تناقض صورته في عصر التنوير الذي رأوه فكراً بالياً، ووصفه بأنه نزعة عقلية باردة، وقدموا بدلاً من ذلك تفسيراً للحياة وصورة عن الانسان من مثالية كانط وجوته وصامويل تايلر كولريدج([١]) [٢].

والجدير بالذكر، أن المفكرين الامريكان الأوائل حين أخذوا من الفلسفة المثالية فكرة (الروح الكونية المطلقة الشاملة)[٣], لم تسمح لهم أنفسهم بالانسياق الى ما قد ساقت اليه أصحابها الأولين من دمج الأفراد في واحدية كونية مطلقة، بل احتفظوا للأفراد بفرديتهم مع جعلهم قلوباً شاعرة وألسنة معبرة عن تلك الروح[٤]؛ وفي صدد ذلك يقول ممثل المذهب المتعالي الامريكي - أمرسون: «لم يعد الأفراد –كما تريد لهم الفلسفة المثالية - مغرقين في المطلق الهيجلي، بل أصبح كل فرد ممثلاً لذلك المطلق، أي أن كل فرد حقيقة قائمة بذاتها على الرغم من أنه إذ يشعر وإذ يفكر أو يعبر، فإنما هو ينوب في ذلك عن الإنسانية جميعاً إن كان صادق الشعور والتفكير والتعبير»[٥].

على هذا الأساس، اعلن امرسون في محاضرة القاها عام (١٨٤٢): «أن ما يسمى بالآراء الجديدة هي، في الحقيقة، أفكار قديمة جداً وضعت في قالب يلائم العالم المعاصر. . . وإن

التي ترتكز على الفكرة القائلة بأن استخدام العقل يمكنهم إدراك قوانين الطبيعة واستخدام هذا الادراك لتسخير قوة الطبيعة لما فيه تقدم البشرية. بهذا تحدت فلسفة التنوير القوى الكنيسية والمدنية التي تحاول إلزام الأفراد بنمط واحد من العقيدة الدينية. وبعد أن شحذت هذه الفلسفة أذهان الأمريكيين بأفكار تمنح التمكين للأفراد وتضعف المؤسسات الدينية، أصبحوا يعبرون بحرية وعلانية عن معتقداتهم وآرائهم الدينية ومن اهم اعلامها الفيلسوف الامريكي الاول المتحضر «بنيامين فرانكلين» (١٧٩٠ - ١٧٠٦) , وتوماس باين (١٨٠٩ - ١٧٣٧) , وتوماس جفرسون (١٨٢٦ - ١٧٤٣): ينظر: لامبرت، فرانك: الدين في السياسة الامريكية، ص١٧.

(١) صامويل تايلر كولريدج(١٧٧٢ - ١٨٣٤): شاعر انكليزي وناقد ومشتعل بالفلسفة، يعد احد مؤسسي الحركة الرومانسية في انكلترا بديوانه الشعري الذي يحمل عنوان الاناشيد الغنائية. ينظر: موسوعة ويكيبيديا, www. ar. wikipedia. org

(٢) ينظر: جلال، شوقي: العقل الأمريكي يفكر، ص٨٣ - ٨٤.

(٣) الروح المطلق: مصطلح يستخدم في الفلسفة المثالية الهيجلية ليدل على الموضوع المبدأ الكلي الأبدي واللامتناهي وغير المشروط والكامل والذي لا يتغير، أي الكامل في ذاته، ولا يتوقف على أي شيء آخر عدا نفسه، ويحتوي في ذاته على كل شيء في الوجود، ويخلق كل شيء موجود. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٤٨١.

(٤) ينظر: محمود، زكي نجيب: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة, ١٩٨٢, ص٧ - ٨. وينظر: جينوفا، أ. ك: البناء الأمريكي للفلسفة المعاصرة، ص٧٢٤.

(٥) نقلاً عن: محمود، زكي نجيب: حياة الفكر في العالم الجديد، ص٧ - ٨.

ما يسمى بيننا، بصورة شائعة، بمذهب العلو هو مثالية؛ مثالية كما ظهرت قديماً. إن الفيلسوف المادي يرتكز على التجربة الحسية وعلى ما يسميه بالوقائع، في حين أن الفيلسوف المثالي يأخذ نقطة انطلاقه من وعيه، وينظر الى العالم على أنه ظاهر. وهكذا يبدو المذهبان متعارضان بحدة. مع أننا حالما نبدأ في سؤال الفيلسوف المادي عما تكون الوقائع الأساسية بالفعل، فإن عالمه الصلب يميل الى التوقف. الكل يرتد، في نهاية الأمر، عند مذهب الظواهر الى معطيات الوعي، ولذلك، فإن المذهب المادي يتحول الى مذهب مثالي، يكون الذهن هو الحقيقة الوحيدة بالنسبة له، ولا تكون الطبيعة سوى ظواهر ذاتية. ولا ينجم عن هذا أن العالم الخارجي هو من خلق الذهن الفردي، فهو بالأحرى، نتاج الروح الكلية الواحدة أو الوعي الأعظم الذي يحتوي بداخله كل وجود جزئي»[١].

وقد حاول امرسون بمزج الروح المثالية بعلم الجيولوجيا أو ما يسمى ب علم الأرض في فلسفته - كما فعل ذلك من قبل بنيامين فرانكلين[٢]) - وذلك بإدراكه مدى اتساع الفضاء الهائل، الذي جعله - من خلال امتداد الأرض في الزمن - أن يرى هذه القوة الخلاقة نفسها تعمل عملها في الأرض هنا والآن. لذلك اقتلع عن الالحاح على الخليقة الوحيدة الكبرى في الماضي، لصالح عملية الخلق المستمر في الحاضر. وهذا ما جعل أمرسون يرى الله عاملاً في الطبيعة، وبواسطتها، في قلوب البشر؛ وما اعطاه في عصر جمود وعقم، بداءة دينامية جديدة، جعلت من فلسفته المثالية نشيد ثناء على الطبيعة الخلاقة، التي نحن جزء منها، في عملها الدائم حولنا وفينا، ماضياً وحاضراً. فيقول امرسون: «لقد علمنا علم الأرض الحديث الكثير عن الطبيعة، كما حملنا على توسيع نظراتنا الى الله وعنايته»[٣]. وهكذا كما يقول فان وسب في مؤلفه «الحكماء السبعة»: «لقد اضافت الجيولوجيا والبيليونتولوجيا(علم المخلوقات المتحجرة) الى مخزون المعرفة البشرية في الفترة الواقعة بين فرانكلين وأمرسون؛ نظرة جديدة سابقة لنظرة تشارلس دارون(١٨٠٩ -

(١) نقلاً عن: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠): مفكر وزعيم سياسي وعالم موسوعي أمريكي ارتبط كل نشاطه بنضال الشعب الامريكي من اجل الاستقلال، ودعا الى الغاء الرق. كانت آراءه الفلسفية قريبة جدا من لوك ومفكري عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر، من اهم آرائه انه كان يعترف بالوجود الموضوعي للطبيعة وقوانينها، وطور فكرة عدم قابلية المادة للفناء وللخلق. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٣٢٧ - ٣٢٨

(٣) نقلاً عن: وسب، فان ه. ب، الحكماء السبعة، ترجمة يوسف الخال وانيس فاخوري، دار مجلة شعر - المكتبة العصرية، بيروت - لبنان, ١٩٦٣, ص٥١ - ٥٢ وما بعدها.

١٨٨٢) الى العالم. وهذا ما أكده «موريس ر. كوهن» في كتابه «الفكر الأمريكي» بأن التطور لم يرد أمريكا عبر دارون، بل قبله بزمن بعيد، عبر كولريدج، وترجمة آثار شيلنغ وجوته وغيرهما من الفلاسفة الألمان والفرنسيين الذين تعمقوا في المبادئ السابقة لدارون»[١]. وقد نشأ عن قبول البيولوجيا التطورية، مشكلة فلسفية هامة ألا وهي: كيف نفسر العقل الإنساني والمعرفة الإنسانية والأخلاق الإنسانية والذات الإنسانية في ضوء الموقف التطوري؟ حيث كانت هذه التساؤلات ذات أهمية أساسية بالنسبة للفلسفة العملية البرجماتية التي اعتمدت على المنهج الداروني في طرح أهم المشكلات الفلسفية[٢].

ج: الكانطية الأمريكية الجديدة

وتبع ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - موجة مثالية أخرى هي التي تسمى عادةً بـ «الكانطية الجديدة», أخذها فلاسفة العالم الجديد عن الفلسفة الألمانية ايضاً - لكنهم هنا ايضاً صاغوها في قالبهم. وكان «لورنز برزيوس هيكوك» (١٧٩٨ - ١٨٨٠) أول فيلسوف امريكي من تولى عرض المثالية الالمانية عرضاً منهجياً، صاغ من خلاله نظرية «كانط» عن المقولات من جديد في مذهب «العمليات العقلية الاولية» التي تطابق الملكات الثلاثة التي قال بها «كانط», وهي: (مَلكة الحس), و(مَلكة الفهم), و(مَلكة العقل). وقد كانت مثالية هيكوك، لاهوتية– نقدية– عقلية – ومن ثم تجريبية. انها لاهوتية: لأنه قال أن معرفة الله أو العقل المطلق، لا يمكن البتة أن تكون موضوعاً للأحكام التي يربط بينها الفهم، ولكنها فحسب موضوع لفراسة العقل الانساني. دليل ذلك – بحسب اعتقاده – أننا نجد في المخلوقات يقيناً لا لبس فيه عن الوقائع التي نشأت في الأصل من الطبيعة؛ ونقدية: إذ من خلالها قدم شرح نقدي «للتجربة الحسية», توصل من خلالها الى الفصل ما بين الوجود الصحيح الظاهري عن طور الوظائف البناءة للفهم؛ وعقلية: فالعقل تبعاً ل «هكوك» يمكن أن يشمل التلقائية الخاصة أو النشاط، وهو غير مشروط اطلاقاً بالمكان والزمان وبطبيعة الأشياء؛ وتجريبية: فقد قال بها هيكوك أثناء انشغاله بدراسة منطق التاريخ، وبالأخص دراسة منطق «أرسطو» ومنطق «هيجل» معاً، ومن خلالهما

(١) وسب، فان ه. ب. الحكماء السبعة، ص٥٣ - ٥٤.

(٢) ينظر: موريس، تشارلس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة ابراهيم مصطفى ابراهيم، مؤسسة شباب الجامعة، مصر - الاسكندرية, ١٩٩٦, ص٢٠.

وصل الى نتيجة مفادها: إن كلاً منهما ينهض بصياغة التجربة صياغة عقلية، وعلى أثرهما قام بمحاولة جزئية لبناء منطق للعالم المحسوس، وقد دعاه «منطق العقل، والكلي، والسرمدي» سنة (١٨٧٥), وفيه حاول صياغة المنطق المثالي على أساس التجربة، حاول من خلاله أن يتغلب على ثنائية المنهج العقلي والمنهج التجريبي، وأن يتبع به آثار التجربة المطلقة في التجربة الإنسانية، وذلك لأن طابع هذه التجربة الانسانية برأيه «جوهرية في ذاتها، مفهومة في ذاتها، كافية بذاتها، مملوكة لذاتها، ومبرهنة بذاتها»(١).

د: الأرثوذكسية الأكاديمية

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، نمت الفلسفة المثالية الأمريكية في تربة الارثوذكسية الأكاديمية، ولكنها حين نمت جلبت معها حياة جديدة، إذ كان لها اثراً بارزاً في الفكر الأمريكي والتربية الامريكية، يستحق أن يسمى نهضة أو بعثاً. فقد غدت الفلسفة المثالية أسماً لقسم مستقل في الكليات والجامعات(٢)؛ فلم تكن الفلسفة الأمريكية في نهاية هذا القرن تهتم إلا قليلاً بالمذهب التجريبي، ولا تكاد تهتم على الاطلاق بالمذاهب الواقعية: كالواقعية التوماوية(٣), والواقعية التي نادت بها المدرسة الاسكتلندية، والواقعية اللاادرية((٤)). وعلى النقيض من هذه الاتجاهات الواقعية المبعثرة كانت الفلسفة المثالية العقلية سواء «الابستمولوجيا» أو الانطولوجيا» مزدهرة في كل مكان(٥). أو بمعنى آخر أن معظم الفلاسفة الامريكيين المثاليين، لم يرغبوا

(١) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص٢٩٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٩١.

(٣) التوماوية: الاتجاه الرئيسي في الفلسفة الكاثوليكية، سمي نسبة الى الفيلسوف والقديس الايطالي توما الاكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤), ومبدأ التوماوية الرئيسي: «الفلسفة خادمة اللاهوت», حتى قيل انه لا يمكن فهم التعاليم اللاهوتية من دون الأسس الفلسفية الاساسية لاطروحات توما الاكويني. . ينظر: طرابيشي، جورج: معجم الفلاسفة، ص٢٤٢ - ٢٤٣. وينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص١٤٩ - ١٥٠

(٤) ( ) مذهب اللاادرية: مذهب ينكر كلياً أو جزئياً إمكان معرفة العالم كما يوجد في ذاته، والشيء في ذاته لا يمكن معرفته، وقديماً ظهرت اللاادرية في صورة مذهب الشك عند بيرون اليوناني، واكتسبت شكلها التقليدي مع هيوم وكانط. وقد استخدم هذا الاصطلاح لأول مرة العالم الايطالي توماس هكسلي، وقال ان اللاادري يفصل الجوهر عن مظهره. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٤٠٢.

(٥) ينظر: منتاجيو، وليم ب. , قصة الواقعية الأمريكية، ضمن كتاب فلسفة القرن العشرين(مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة), اعداد داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب،

في قبول المذهب الوضعي[1]), والمذهب التجريبي، والمذهب اللاادري، ومذهب التطور الطبيعي. وبحثوا عن تفسير للكون أكثر ملاءمة لمطامح الإنسان الروحية. إذ لابد من وجود شيء أعلى من الطبيعة الفيزيائية في العالم يستجيب له ذهن الإنسان، لكي يعرف الإنسان الطبيعة، ويستطيع أن يعين قوانينها بصورة علمية. إن القلب النهائي للواقع لابد أن يكون بمعنى ما، عقلياً، مثالياً. ولا يمكن لعقل الإنسان أن ينشأ من كون لا حياة فيه ولا عقل بصورة مطلقة، ولا من مبدأ مجهول لا يمكن معرفته. لذا فقد قدر الفلاسفة المثاليون الامريكيون ألوان التقدم العظيمة التي حدثت في العلوم الطبيعية وأهمية التصورات الجديدة للتطور. ووجدوا في تأملات الفيلسوف إمانويل كانط والمفكرين المثاليين الألمان الذين جاءوا بعده، نقطة انطلاق لتطوير مذاهب تعترف بالمكتشفات الجديدة في العلم، لكنها تجاوز في الوقت ذاته قصور العلم، وقدموا تفسيراً للواقع أكثر عمقاً وشمولاً، مع افساح مجال كاف للقيم الروحية بما في ذلك الحق والخير والدين[2].

ومن الاسباب الأساسية التي دعت هؤلاء المفكرين التمسك بالمثالية هو ما يكمن في دواخل الايديولوجية الأمريكية: مزج أو عطف الممارسة مع الدين، ففي اعماق الوعي الايديولوجي الأمريكي نجد هذه الفكرة، وهي أن الله قد اختار أمريكا ليحمي الخير والحق والحقيقة. فالأمريكي يعتبر نفسه صاحب رسالة لبناء عالم مثالي جديد[3].

وقد اكتسحت الحركة المثالية كليات وجامعات الولايات المتحدة. والواقع أن كل أستاذ للفلسفة في الولايات، كان تقريباً مثالياً في الفترة بين عام (١٨٧٥ - ١٩٠٠) وظل الفلاسفة

مصر, ١٩٦٤, ص٢٠٠ - ٢٠١.

(١) المذهب الوضعي: هو الاسم الذي يطلق على المذهب الذي أسسه الفيلسوف الفرنسي اوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) كان يقول بإمكانية دراسة المجتمع بنفس الاساليب والطرق والخطوات المنهجية التي تدرس بها العلوم الطبيعية. لذا فقد كانت الوضعية تهتم بوصف الظواهر الاجتماعية دون تفسيرها، لأن التفسير يرتبط برأيهم بالتأملات الفلسفية والميتافيزيقية. كما استبعدت الوضعية البعد الانساني والتأملي والاخلاقي في عملية البحث. لذا فالوضعية: هي نمط من المعرفة تقوم بتوظيف وتوجيه العقل نحو الملاحظة والتجريب والكم الحسابي - الرياضي والمعاملات الاقتصادية ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص٣٢٤.

(٢) ينظر: رايت، وليم كلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١, ٢٠١٠, ص٤٥٩.

(٣) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص٣٥.

الامريكان المثاليون بعد ذلك هم الغالبية لمدة عقد أو عقدين[١]. إذ كانت الفلسفة الالمانية، لاسيما فلسفة كانط، تعرض بدقة وبشكل نسقي من جانب لورنس ب. هيكوك، في جامعة نيويورك وفي جامعة هارفارد عرف فريدريك هيدج وجيمس ووكر بأعمال كانط وشيلنغ، ووبوين بإدخال شوبنهور وهارتمان في التعليم الجامعي[٢]. واختلفت صور المذهب المثالي في نهاية القرن التاسع عشر اختلافاً ملحوظاً، فالجميع يتفق في افساح مكان في الواقع للقيم العليا، وفي جعل الروح أكثر أهمية من المادة. وربما كان الشقاق الأكثر أهمية بين انصار المثالية المطلقة الذين كانوا واحديين ومن انصار مذهب وحدة الوجود، الذين ادرجوا كل الواقع داخل عقل واحد شامل كل الشمول يسمى ب «المطلق» وبين الفلاسفة من انصار المثالية الشخصية الذين كانوا من انصار مذهب الكثرة وكانوا عادة، مؤلهة، وأكدوا تأكيداً على فصل الأشخاص وعلى قيمهم الداخلية[٣].

ثالثاً: اتجاهات الفلسفة المثالية المعاصرة في أمريكا

قد ارتدت الفلسفات المثالية الأمريكية الى اتجاهين: اتجاه المثالية اللاهوتية التي تقسم الى ثلاث اتجاهات هي: المثالية الدينامية والتطورية والمثالية الشخصانية والمثالية المطلقة؛ واتجاه المثالية غير اللاهوتية وهو شكل المثالية التأملية كما صاغها كرايتون. وتمثل كل واحدة منها نموذجاً أمريكياً جديداً للمثاليات التقليدية، وهي كما يلي:

أولاً: الفلسفة المثالية اللاهوتية وتتضمن:

أ: المثالية الديناميكية

ارتبطت هذه المثالية بجامعة «متشجن», وأهم من يمثلها: جورج سلفستر موريس (١٨٤٠ - ١٨٨٩), الذي درس في دار موث كوليج والكلية اللاهوتية المتحدة بنيويورك، وامضى بضع سنوات في ألمانيا، حيث وقع تحت تأثير ترندلنبرج في برلين[٤]. وترى مثالية موريس أن

(١) ينظر: رايت، وليم كلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٤٦١.
(٢) ينظر: ديلودال، جيرار، الفلسفة الأمريكية، ص٦٢ - ٦٣. وينظر: منتاجيو، وليم ب. , قصة الواقعية الأمريكية، ص٢٠١.
(٣) ينظر: رايت، وليم كلي: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص٤٦١.
(٤) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤٢٣.

المادة ذكية لكونها عضوية والعقل لكونه دينامياً فهو مادي أو جوهري، والنفس هي النشاط العضوي الخلاق أو الجوهر، وفيها لا تشكل المادة العضوية والعقل الدينامي إلا واحداً. وقد كان مذهب موريس مثاليا - هيجلياً، تتحدد فيه مقولات الفكر بوصفها مقولات حركة(١), متأثراً بالفكرة الارسطية عن الحركة، والتي ترى أن الحياة هي حركة بصورة واضحة، والتفكير هو نشاط تلقائي، يماثل صوراً من الطاقة الطبيعية، وهذا التفكير لا يوصف بأنه حركة جدلية لأفكار أو لمقولات، إنما هو بالأحرى، تعبير عن نشاط الروح أو العقل. والفلسفة هي علم العقل النشط أو أنها علم التجربة الفعالة أو المعاشة. ويرى «موريس» أن القول بأن وصف الفلسفة بهذا الشكل، لا يعني بأنها لا ترتبط بالوجود. لأن تحليل التجربة يبين أن الذات والموضوع، المعرفة بالوجود، متضايفة. فما يوجد أو يكون له وجود، هو ذلك الذي يُعرف أو يمكن معرفته، إذ أنه ذلك الذي يندرج داخل المجال الممكن للتجربة النشطة. وهذا هو السبب في إنه يجب رفض النظرية الكانطية عن «الشيء في ذاته»(٢)) الذي لا يمكن معرفته، وايضاً مذهب الظواهر الذي ينتج عنه. وبموجب ذلك انفصل موريس عن مثالية كانط وارتبط في سنواته الأخيرة بمثالية «هيجل», الذي كان ينظر اليه على أنه فيلسوف تجريبي موضوعي، يهتم بتكامل التجربة البشرية عن طريق العقل(٣).

ب: المثالية التطورية

وتؤكد هذه المثالية على حضور الله الكلي، وتحاول البرهنة على أن ذلك لا يتنافر مع حرية الإنسان. ومن أهم ممثلي هذا الاتجاه وهما: جوزيف لوكونت(١٨٢٥ - ١٩٠١), وجون إلوف. بودين(١٨٦٨ - ١٩٥٠).

بالنسبة لـ «جوزيف لوكونت», صاحب كتاب «تصور الله» و «التطور وعلاقته بالفكر الديني», فقد اهتم بالجوانب الفلسفية لنظرية التطور، وقدم ما يمكن أن يوصف بأنه مثالية تطورية. ورأى

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص١٨١ - ١٨٢.

(٢) الشيء في ذاته: هي الماهيات التي تعلو نطاق الطبيعة الغير قابلة للمعرفة وليست في متناول التجربة. أو هو الشيء المجرد، أي الشيء المطلق المستقل عن الظواهر الطبيعية، وعن صورها الموجودة بالفعل ويمثل الجوهر الذي لا يمكن تصوره وادراكه بغير التأمل العقلي أو الحدس اللاحسي. ينظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج١, ص٧١٣. وينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٢٧٠

(٣) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤٢٣ - ٤٢٤.

أن هناك طاقة إلهية تعبر عن نفسها بصورة مباشرة في قوى الطبيعة الفيزيائية والكيميائية، وهذه الطاقة هي المصدر النهائي للتطور، غير إن هذا تدفق هذه الطاقة الإلهية يصبح بصورة تدريجية متفرداً بصورة تلازم التنظيم المتطور للمادة(١).

وأن التطور باعتباره قانون اشتقاق أشكال انطلاقاً من أشكال سابقة، وبوصفه قانون تواصل حيوي وقانوناً عالمياً، حقيقة مسلم بها بالنسبة ل لوكونت، فالله محايثاً للطبيعة، إذ أن قوى الطبيعة الجامدة جزءاً من الطاقة الإلهية الكلية الحضور في حالة الانتشار غير المفردة، وهذه القوى ليست ناشطة أو فاعلة بذاتها، إلا أن تمظهرها يتحدد مباشرة من خلال الطاقة الإلهية. ثم تتفردن الحياة باطراد، فمن المادة الجامدة تتحول بذرة عند النباتات، وجنيناً حياً عند الحيوان، وتبلغ حالتها الفردية القصوى عند الإنسان: مبدأ التفرد الكامل، وانفصال الروح من عمق الطاقة الإلهية العامة المنتشرة في الطبيعة، هو السمة الأساسية التي يتميز بها الإنسان الحر، ومنها يصل روح الإنسان بالتطور الى ولادة روحية جديدة والى حرية أخلاقية شديدة السمو، بوصفه انساناً خلق روحياً من جديد كالإنسان الاله متمثلاً ب المسيح: الشخص الإلهي(٢).

وهكذا فأن فلسفة لوكونت المثالية، فلسفة تعددية، لأنه يرى أننا نجد في عملية التطور ظهوراً لصور عُليا، بصورة متتابعة، من أفراد نشطين بذاتهم، حتى نصل الى الصورة العليا للموجود الفردي التي لم تتحقق بعد، أي الموجود البشري، ففي الإنسان يمكن للحياة أن تعرف تدفق، أو بريق، ما هو إلهي، ويمكن أن تدخل في تواصل واع مع مصدرها النهائي. أننا نستطيع، بالفعل، أن نتطلع الى سمو تدريجي للإنسان الى مستوى الإنسان الذي يبعث من جديد، الذي يتمتع بدرجة عالية من التطور الروحي والاخلاقي(٣).

وقد أثرت مثالية لوكونت على مثالية «جون إلوف. بودين» التطورية، لكنها تختلف عنها من ناحية تعتبر كل لحظة من لحظات التطور بمثابة تاريخ معزول. كما يعتبر بودين التطور خلاقاً داخل كل تاريخ، إلا أنه لا يخلق النظام التطوري اللاحق، إذ إن النشاط الزمني والأزلي التابع للروح الإلهية هي التي تخلقه. فالله هو الوسط الروحي الذي يحيا فيه كل شيء، ويتحرك ويكتسب كينونته، وهو الحقل الذي يحكم السيرورة الكونية، مع وجوب تأقلم الأجزاء من

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٤١٧.
(٢) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص١٨٦ - ١٨٧.
(٣) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤١٧ - ٤١٨.

ذاتها وعلى طريقتها مع بنية هذا الحقل تبعاً لنسبيتها الخاصة وفي انظمتها المعيارية المتحركة الخاصة. الله هو إذاً خالق الانظمة المغلقة في سيرورات تطورية خالقة بدورها، ولذلك يكون الإنسان حراً(١).

والفكرة الرئيسية لمثالية بودين، تؤكد أننا نستطيع أن نرى في عملية التطور نشأة مستويات أعلى، بصورة متتابعة، من التطور عن طريق النشاط الخلاق لمبدأ «محايث»(٢), تفسر طبيعته في ضوء نتاجاته العليا وليس في ضوء نتاجاته الدنيا. وبمعنى آخر، تستبدل المثالية التطورية التصور الآلي الخالص للتطور، الذي يقوم على قوانين ترتبط بتوزيع الطاقة من جديد، بتصور غائي وتحدث وفقاً له عمليات آلية داخل حركة عامة خلاقة تميل نحو هدف مثالي. وهكذا يميز بودين بين مستويين أو مجالين متفاعلين من الطاقة، يمتدان من المستوى]الفيزيائي - الكيميائي[الى المستوى]الاخلاقي - الاجتماعي[, والمجال الشامل كل الشمول هو الروح الإلهي الخالق، أو المجال الروحي الذي يعيش فيه كل شيء ويتحرك، وله وجوده، وهو (الله) الذي هو وفقاً لتصور بودين أزلي، والفاعلية الخالقة التي تضم تاريخ الكون كله. وبالمقابل لا تنكر المثالية التطورية، قيمة الشخصية البشرية، لأن الروح البشرية عند بودين تشارك في الابداع الإلهي عن طريق تحقيق القيم(٣).

ج: المثالية الشخصانية

وتعتبر المثالية الشخصانية من أهم مذاهب المثالية الأمريكية اللاهوتية، وذلك لصلتها الوثيقة بمذهب «الاعتقاد بالله», وقد أدت مهمتها بمنتهى الوضوح كفلسفة للدين. وخلاصة أفكارها تتجلى في موقفها الديني ضد كل من تعدد الآلهة وثنائية الآلهة، وهي تعتقد أن كل حقيقة هي

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص١٨٧ - ١٨٨.

(٢) المبدأ المحايث أو المحايثة: مفهوم من المفاهيم الرئيسية للفلسفة التأملية التقليدية والمثالية المعاصرة، في الاصل اللاتيني يعني (يمكث في) , والمحايثة في مقابل المفارقة تدل على حضور الشيء في ذاته وأهم من استخدم هذا المصطلح هم أرسطو والمدرسة السكولائية و كانط. وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهر تيار مثالي معاصر في الفلسفة اطلق عليه تيار الفلسفة المحايثة، وكانوا ينتقدون (الشيء في ذاته) الذي قال به كانط. والمسلمات الرئيسية لهذه الفلسفة هي لا وجود الا لما هو موضوع للفكر والوجود محايث للوعي: ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٤٥٩ - ٣٤٩.

(٣) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤٢٦ - ٤٢٧.

الى حد ما شخصية، وأنه لا توجد إلا أشخاص، والشخص هو العنصر الروحي الأول للوجود؛ وأن الشخصية واعية لذاتها، سواء في الأفراد المتناهين، أم في الذكاء الخلاق الأسمى، الذي هو الأساس والمصدر للحقيقة الخارجية كلها. ووجود هذا الذكاء لابد منه في عملية الخلق، لأن هذه العملية تتضمن استمراراً غائي. لهذا فإن هذا الذكاء يجب ألا يقتصر على أن يكون باطنياً، بل يجب أن يسمو على خلقه. وهذه الباطنية وهذا التسامي إنما يوجد فيما يسمى ب (الشخصي). وكثيراً ما تستخفي النظريات الشخصانية تحت اسم المطلق واللامتناهي، ومعنى هذا أن هذه الكلمات في أدق معانيها تتضمن ما هو غير مشروط ولا محدد ولا مرتبط بشيء من الأشياء، ومن الناحية العملية نجد كثيرين من أصحاب فلسفة الشخصانية يتحدثون عن المطلق كما لوكان شخصاً(١).

وعلى هذا النحو تقيم الفلسفة الشخصانية نظريتها في المعرفة، التي ترى أن عالم الأشياء ينبع من مصدر ذكي، وبهذا فلابد أن يكون بالضرورة معقولاً لكل العقول السوية، وتكون المدركات الحسية الإنسانية صادقة. ومن الناحية الدينية نجد الفلسفة الشخصانية مؤمنة، تعتقد أن الشخص لا يستطيع أن يصل الى أسمى مراتب التعبير عن الذات إلا بوجود أقصى انسجام بينه وبين طبيعة الأشياء؛ ولما كان النظام الكوني شخصانياً، فهو ايضاً اخلاقي والمبادئ الخلقية مسطورة في طبيعة الأشياء. لذا تعتبر الشخصية الأخلاقية أعلى مراتب الخلق، فهي تفترض وجود مبرر لاتقاء الشر والخطأ في الحياة(٢).

ومن أهم اعلام المذهب الشخصاني جورج ه. هوفيسون(١٨٣٤ - ١٩١٦), الذي تعتبر مثاليته شخصانية تعددية ذات صبغة عقلانية، اطلق عليها «فلسفة جمهورية العقول الأزلية», كما يشهد على ذلك قوله: «الشيء الوحيد الواقعي بإطلاق هو العقل، تستمد كل الموجودات المادية والزمنية كينونتها من العقل، من الوعي الذي يفكر، يشكل حضورها في الوعي كل حقيقتها وكل وجودها»(٣).

(١) ينظر: فلوولنج، رالف. ت. : الفلسفة الشخصانية، ضمن كتاب فلسفة القرن العشرين(مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة), اعداد داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، مصر, ١٩٦٤, ص٩٨ وما بعدها.
(٢) ينظر: فلوولنج، رالف. ت. : الفلسفة الشخصانية، ص٩٨ - ٩٩.
(٣) نقلاً عن: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص ١٨٨ - ١٨٩.

وقد استند هوفيسون على المقدمة الكانطية في «الأنا النومينالي الأزلي»[1]) ولكن ليست كمصدر كل عناصر الربط والاستنتاج للوعي البشري، بل إن هذه العناصر هي مصدر آخر مختلف كلياً، إنها تدين في وجودها الى العلاقة المتبادلة بين العناصر والى التواجد الأساسي المشترك للعقول في المجتمع. هذا التواجد الأخلاقي المشترك للأشخاص، وبعيداً عن التماس وجود الأنا النومينالي الأزلي في العقل المطلق اللانهائي، يخلق أزلياً هذا الرباط الحي الذي يوحد عناصر جمهورية العقول، والتي يطلق عليها اسم (الله). إلا أنه ليس لجمهورية العقول الأزلية، أي عالم العقول، بما فيه «الله» والتي يطلق عليها هوفيسون ايضاً اسم «مملكة الله» مصدر آخر غير ذاتها، إنها تشكل النظام الأزلي، العقلي والمثالي. إلا أن وحدة مملكة الله ليست وحدة كتلة من حجر واحد لا يتغير، إنها وحدة «تناغم موحد» وحدة «التآزر العفوي», الذي فيه تتآزر كل العناصر بحريتها لتوصل الهدف النهائي المشترك الى عالم الأشياء «القابلة للتغير», بعبارة أخرى، لتبني بطريقة متواصلة ومطردة البنى العقلانية في العالم المحسوس. بالتوافق هنا مع الفيلسوف كانط، يؤمن هوفيسون بالنشاط البناء للعقل، إلا أنه يعتقد إن هذا النشاط لا يصبح فاعلاً إلا إذا مورس بالتعاون مع كل عقول الجمهورية الأزلية إبان سير التطور الكوني الذي تقوده[2].

وهنا يناقض هوفيسون أصحاب المثالية التطورية لأنه يرى أن المذهب التطوري الطبيعي يتجاهل الله، إنه يُنَحي إله الديانة التقليدية، الخالق الكلي الحضور لصالح ما لا يُعرف: بالقدرة الكلية المحايثة دون شك لكل الأشياء. ولا ينتقده لضعف برهانه بل –بالعكس - يهاجمه، لأنه ضحى بالله من أجل برهانه. فحين لا يتماشى المذهب الطبيعي وفكرة الله لا يكون موقفه افضل، لأنه لا يقوم سوى باستبدال ضرورة التطور الكوني، بضرورة الإرادة الإلهية التي تدرك بوصفها روحاً أو وعياً كونياً. وعن هذا التأله الكوني دافع عام (١٨٩٥(كل من جوزيا رويس ولوكونت، إبان المناظرة الفلسفية الكبرى «حول الله», التي دارت في مؤتمر الوحدة الفلسفية في بركلي «كالفورينا» واضاف هوفيسون، أنه لا يجب أن يكون تصورنا لله متناقضاً مع تعاليم المسيحية، بل عليه القبول أن الإنسان حرّ، وهو خالد شخصياً، فلا وجود لله دون أشخاص بشريين احرار

(١) الأنا النومينالي الأزلي: ويقصد بها كانط الأنا المتعالية المثالية الخالصة مقابل الأنا التجريبية الفردية، واعتبرها الوحدة الكلية الصورية للإدراك المتميز وحامل الأمر المطلق. ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٥٤

(٢) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص١٨٩ - ١٩٠.

وخالدين ابداً[١].

أما «بوردن باركر بوين»(١٨٧٤ - ١٩١٠), فقد وصف فلسفته في البداية بأنها «تجريبية ترنسندنتالية» أي تجريبية متعالية، نظراً للدور الواضح الذي تلعبه نظرية المقولات التي استوحاها من الفيلسوف كانط في فلسفته. وهذه المقولات ليست، ببساطة، نتائج مشتقة وعفوية للتكيف مع البيئة في عملية التطور فحسب، بل انها في الوقت نفسه، تعبيرات عن طبيعة الذات وتجربتها الذاتية. ويبين ذلك أن الذات وحدة نشطة، وليست مجرد مسلمة منطقية، كما اعتقد كانط. فالشخص أو الذات بالفعل، تتميز بالذكاء والإرادة، إنها العلة الحقيقية الوحيدة، لأن العلية الفاعلة إرادية في جوهرها[٢].

وقد وصف بوين فلسفته بأنها فلسفة «تجريبية مثالية» كونها تؤكد على الذات العارفة من جهة، وتعتمد على الوسائل الحسية من جهة أخرى، وهو ما يذكرنا طبعاً بفلسفة كانط التوافقية، لولا أن بوين يأخذ على كانط، أنه حصر قدرة الذات العارفة على ظواهر الأشياء دون حقائقها في ذاتها، وذلك حد من قدرتها لا يرضي بوين، فما ليس يقع في وعي ما، لا وجود له، وكل ما في الوجود من كائنات لا يخرج عن كونه أما ذاتاً عارفة أو فكرة معروفة للذات. ويوضح ذلك بقوله: «إنه من خلال الذات يستطيع الإنسان أن يفهم الأشياء وترابطها، أرى في الأشياء فاعلية لأنني أرى في ذاتي فاعلية فأعكسها على الأشياء، وأرى في الشيء الخارجي وحدة رغم تعدد ما يأتيني منه من انطباعات حسية لأنني أرى في نفسي تلك الوحدة فأخلعها على الشيء الخارجي وهكذا، فإن ذات الإنسان هي عالمه وهي نبراسه الذي يهتدي به في فهم الأشياء، فهي عالمه لأنه يستحيل على الإنسان أن يعرف ما ليس في ذاته، وهي نبراسه لأنه على مبادئ تكوينها يفهم تكوين الأشياء»[٣].

من خلال ما ورد، نرى إن الفلسفة شخصانية لبوين تعددية، مثلها مثل شخصانية هوفيسون، ولكن الحدث الأساس بالنسبة لبوين هو حقيقة الأشخاص، والشخصية ليست نتاج التطور ولا نتاج التجريد، فلا نستطيع إلا أن نجربها بوصفها حدثاً، ويجب أن تكون ممكنة لأنها معطاة بوصفها حقيقة، والشخصية لا يمكن أن تكون مقولة مجردة، ذلك أن المقولات لا تفسر أبداً

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص١٨٢ - ١٨٣.
(٢) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤١٨ - ٤١٩.
(٣) نقلاً عن: محمود، زكي نجيب، حياة الفكر في العالم الجديد، ص٨٦ - ٨٧.

العقل، العقل هو الذي يفسر المقولات، ذلك أن العقل هو بكل بساطة حدث أول يفسر كل الأشياء الأخرى، على أن يقبل هذا الحدث نفسه. أن تكون شخصاً، فذلك يعني أن تكون عقلاً، روحاً متناهية جوهرية. لكن ممن يأخذ الشخص وجوده؟ لا يستطيع أخذه إلا من كائن يكون هو الآخر شخصاً، الله، الشخص الأعلى(١).

فمن هذه الناحية نجد أن الفلسفة الشخصانية مؤمنة، تعتقد أن الشخص لا يستطيع أن يصل الى أسمى مراتب التعبير عن الذات الإنسانية - باعتبارها كائناً قائماً - إلا بوجود اقصى انسجام بينه وبين طبيعة الأشياء. وهذا الانسجام إنما يعبر عن روح التجربة المثالية الشخصية، ولكن بشرط أن يكون الإدراك بالذات في أكمل صورة، وهذا لا يأتي الا بإخضاع المصالح الشاذة الأنانية والفردية بكل الاهتمامات، الى أسمى وأعظم قيم الحياة، وبذلك يرى «بوين», إن القوة الخالقة العليا نفسها تشارك في هذا الدور من الانسجام التجريبي، وفي هذا المعنى الأسمى يجب الاعتقاد بأن الحقيقة الخلاقة العليا «شخصانية» في اسمى واصدق معانيها(٢), لأن الشخص الإنساني المتناهي هو النموذج الذي على أساسه يتم تصور طبيعة اللامتناهي لله(٣). والله - من وجهة نظر بوين - هو ذات كلية كبرى، وما ذواتنا الفردية الجزئية إلا اجزاء منها(٤).

وقد سار على نهج «بوين» في الفلسفة الشخصانية، الفيلسوف المثالي «وليام إ. هوكينغ (١٨٧٣ - ١٩٦٦) وفي مؤلفه: «معنى الله في التجربة الإنسانية» اعطى البرهان الانطولوجي صياغة جديدة تجعله مقبولاً. فنراه لم يقل: «عندي فكرة عن الله، فالله إذاً موجود، بل قال: «عندي تجربة عن الله، فالله إذاً موجود»(٥). كانت مثاليته واقعية وصوفيه في آن واحد، وبهذه المقولة برهن «هوكينغ» على أننا نختبر الله مباشرة عبر التجربة المحسوسة، التي ترتبط ضرورة بحياة كل الاشخاص الذين يشكلون فعلياً جزءا من الطبيعة. وتنطوي هذه التجربة على الاعتراف بالروح الآخر الذي يعرف الموضوع نفسه. هذا العقل الآخر لا يمكن أن يكون عقل الناس الآخرين، لأنهم مثلي، يتبعون الطبيعة التي لا تنتظر أن نعرفها حتى تكون. هذا العقل الآخر هو

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص١٩٠وما بعدها.
(٢) ينظر: فلوولنج، رالف. ت. : الفلسفة الشخصانية، ص١٠٠ - ١٠١.
(٣) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص١٩٢.
(٤) ينظر: محمود، زكي نجيب، حياة الفكر في العالم الجديد، ص٨٨.
(٥) نقلاً عن: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص ١٩٥.

«الله» العارف الكلي الحاضر ضرورة كل معرفة موضوعية. وبالتالي نحن نعرف الله أولاً، وبهذه المناسبة ندرك ذواتنا، ثم نعرف الطبيعة والناس الآخرين(١).

كما يرى هوكينغ، إنه من خلال استبصارنا الحدسي، بوجود حقيقة إلهية شاملة تجعل الوعي البشري ممكناً، ذلك من خلال مشاركتنا في وعي اجتماعي تتضمن وعياً واضحاً بالله، وتكون بمعنى ما، تجربة للعقل الإلهي، ولذلك يمكن صياغة الدليل الانطولوجي الذي قال به هوكينغ على النحو الآتي: «لدي فكرة عن الله، إذن لدي تجربة عن الله»؛ وذلك لأنه يصر على أن الله شخصي، فبرأيه ليس هناك شيء أعلى من الكيان الذاتي، ولا شيء أكثر عمقاً منه. ويصر في الوقت نفسه أننا لا نستطيع أن نتخلى عن مفهوم «المطلق». وهذا يعني أنه يجب علينا أن نتصور الله من حيث أنه، يشمل بداخله عالم الذوات المتناهية وعالم الطبيعة. وكما أن الذات البشرية، التي تُجرد من حياة التجربة الخاصة بها، تكون فارغة، فكذلك يكون مفهوم الله فارغاً إذا نظر اليه بمعزل عن حياة التجربة المطلقة الخاصة به. فالذات الإلهية تكون موضوعاً لكل الأشياء المتناهية، والأشخاص، وهكذا يكون العالم ضرورياً لله، على الرغم من أننا نستطيع في الوقت نفسه أن نتصوره بوصفه مخلوقاً، لأن الطبيعة هي، في الواقع الأمر، تعبير عن العقل الإلهي، كما أنها - الطبيعة - الوسيلة التي عن طريقها تتواصل الذوات المتناهية بعضها مع بعض، وتتعقب مُثلاً عُليا عامة، فالطبيعة كما يعرفها هوكينغ بوصفها تواصلاً إلهياً مع الذات المتناهية(٢).

وهكذا فإلى جانب وصف هوكينغ لمذهبه الفلسفي بأنه مذهب «تصوف واقعي», فإنه أحتوى، عناصر أخرى مستمدة من الفلسفة المثالية والفلسفة الطبيعية والفلسفة العملية، بل ربما كان العنصر المثالي أكثر هذه العناصر غلبه عليه. ومما يشير ذلك عبارة هوكينغ التي يقول فيها: «إن الفلسفة المثالية جوهر الفلسفة وروحها أكثر منها أسلوباً خاصاً من أساليب التفكير الفلسفي»(٣). وربما كان من أهم أجزاء فلسفته رأيه في الإدراك الحسي قوله إنه حلقة الاتصال بين النفوس البشرية الكثيرة. وأن بواسطته نعرف غيرنا من النفوس البشرية الأخرى معرفة مباشرة، لا، بل نعرف الله(٤).

(١) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ص ١٩٥.
(٢) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤٢٨ - ٤٢٩.
(٣) نقلاً عن: وولف، أ. : فلسفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة, ١٩٤٤, ص٦٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٥ - ٦٦.

د: المثالية المطلقة

وهذا النمط من المثالية، إنما يدل على الصور العديدة التي عرض بها «جوزيا رويس»(١٨٥٥ - ١٩١٦) نظريته عن «المطلق» أو «التجربة المطلقة»؛ والتي أوضحها في خطاب له نشر بعنوان «تصور الله « سنة (١٨٩٧), وذلك عندما تناول برهان واقعية المطلق في حدود التجربة، بمعنى أن التجربة الإنسانية تنطوي على التجربة المطلقة، وهذه التجربة - المطلقة - مرتبطة بتجاربنا ارتباط الكل العضوي بأجزائه، وهذا ما يؤكده بالقول: «أن كل تأويل ذكي لتجربة يتضمن الحاجة الى تجربة أشد تنظيماً. فالتحدث عن أية حقيقة تشير اليها هذه التجربة، هو تصور هذه الحقيقة للتجربة الأشد تنظيماً. فتأييد أن ثمة واقعة حقيقية مطلقة تشير اليها تجربتنا، هو النظر الى هذه الحقيقة على أنها حاضرة في تجربة منظمة تنظيماً مطلقاً «[١], أو بمعنى آخر «بأن كل تجربة، مهما كانت ضآلتها، تعتبر جزءاً من تجربة أبدية، غير متغيرة. والعالم، هو التجربة الكونية التي خلقها الله مرة واحدة، وإنه عالم زمني أصلاً، يتطور من قبل ومن بعد تطوراً زمنياً «[٢]. وهذه التجربة المطلقة الثابتة المركبة من العديد من التجارب المتتابعة، ليست قائمة فعلياً على التجربة الزمانية أي المركبة من عناصر زمنية والتي هي تجربتنا في نهاية الأمر وإنما يعتبرها «رويس» تتكون حرفياً من التجربة العلائقية[٣].

ومع ذلك، تواجه «رويس» مسألة في منتهى الصعوبة وهي: أيمكن للتجربة الإنسانية أن تكون ممكنة في ظل القول بوجود التجربة المطلقة؟[٤]؛ يفسر هذه المسألة ويجيب بقوله «بأن هناك بعدين لهذه الحقيقة، وهما الإرادة والفكرة، وعالم المعاني الداخلية والخارجية، وعالم المعاني هذا ليس إلا طور لغرض واحد فمعانينا الداخلية أو الباطنية «إرادتنا و»غاياتنا», تحتاج الى التحقق تحققاً خارجياً. والمعاني الخارجية، تحتاج لأن تكون ملائمة ومشبعة ومرضية لمعانينا الباطنية،

(١) رويس، جوزايا: الجانب الديني للفلسفة، ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط٢, القاهرة, ٢٠٠٩, ص١١ - ١٢.

(٢) سبيريدج، ت. ل. س. : الصور المميزة في الفلسفة الامريكية، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠, ص٤٠٠.

(٣) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٤) رويس، جوزايا: العالم والفرد (المفاهيم الأربعة التاريخية في الوجود), مج١, ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة, ٢٠٠٨, ص١٨١ وما بعدها. ويقارن: رويس، جوزايا: روح الفلسفة الحديثة، ص٢٦٥.

والفكرة حلقة الوصل بين المعاني الباطنية والخارجية. والواقع الخارجي ما هو إلا عبارة عن غاية، ومثل أعلى أو هدف تتجه اليه مقاصدنا، فالحقيقة المطلقة ماهي إلا التحقق الموضوعي لأهدافنا الفردية ومعانينا الباطنية(١).

وفي فلسفته المثالية يحاول «رويس» على قدر الإمكان، أن يفسر كيف يمكن لنا معرفة شيئاً عميقاً جداً وحيوياً عن الوجود الحقيقي الذي يكمن وراء هذا العالم. ويتوصل الى أن شرح هذا العالم قد يكون ناقصاً أو محدوداً نسبياً، ونتيجته تبدو في منتهى الغرابة، أو متناقضة لحد كبير فيرى «رويس» أنه على الرغم من أن هذا العالم محدود بالنسبة لنا، ولا يوجد به شيئا واضحاً، لأنه عالم ملئ بالمشكلات الغامضة والمعقدة، فأنه يكون أكثر وضوحاً من الوقائع المباشرة التي قد نراها بالحس في هذه اللحظة» فنحن لانعرف عن العالم المتناهي وبصورة عامة إلا ما تقدمه لنا التجربة وما يؤكده لنا العلم»(٢).

وعلى أثر ذلك يؤمن «رويس» بوجود تجارب أخرى تختلف عن تجاربنا الحسية التي تدرك العالم الواقعي وهذه التجارب هي الباطنية المحدودة وهي المعيار الوحيد لنوع العلل التي توجد في العالم. أي بمعنى أن هناك تجارب باطنيه للفرد يدرك من خلالها جميع أسباب أو علل الوجود وما بيه من الموجودات، والتي لا يمكن تفسيرها بالتجارب الحسية إلا بنسبة ضئيلة. فالمثالية تؤكد وجود علاقات بين العالم الخارجي والعالم الباطني: الأول موضوع الفكرة، والثاني عالم المفكر، وحين تتحدث الفلسفة عن العالم الخارجي الذي يحاول العقل فك الغازه فإنها تتحدث في الوقت نفسه عن العقل الذي تعترف المثالية بطبيعته الخاصة، وفي هذا الاعتراف يكمن السر. وهكذا ينتهي رويس من نقد التفسير العلمي للعالم، ومن نقد المذهب الواقعي، ليؤمن بالتفسير المثالي للعالم وبالأخص لنظرية الذات الواحد المطلق بوصفه الحقيقة المجسدة في كل من العقل والطبيعة. وبوصفه مذهباً يمكن تأسيسه بدون محاولة تجاوز قدراتنا الإنسانية(٣).

وهكذا اعاد رويس بمثاليته المطلقة، صياغة مفهوم «المثل» وبشكل يتطابق مع الواقع العملي، وتحدث عنه من منطلق تطابقه مع الأشياء باعتبار أنه لا يصمد طويلاً، لمعيار الانطباع الحسي العادي، من خارج الذات التي انطبعت به، وإنما هو يصمد لما يقتضيه العمل، أو الخطة أو

(١) ينظر: رويس، جوزايا: الجانب الديني للفلسفة، ص١٢.
(٢) رويس، جوازيا: روح الفلسفة الحديثة، ص٣٨٢.
(٣) ينظر: رويس، جوزايا: الجانب الديني للفلسفة، ص٤٢.

المشروعات التي يتطلبها التعامل مع مشاكل هذه الذات نفسها، واحتياجاتها الخاصة»[١]؛ أو بمعنى آخر، إذا كانت المثالية التقليدية تحاول القضاء على الواقع، واتسم العقل معها بالصورية والجمود والشمول، فإنها مع رويس سارت في تيار الهيجلية الجديد: فكل واقعي عقلي وكل عقلي واقعي، ورفض تجاوز الواقع أو اهماله، ورفض الفصل بين الفكر والحياة، وهذا يوضح الجانب التوفيقي في فلسفة رويس المثالية.

ثانياً: المثالية غير اللاهوتية أو المثالية التأملية - الموضوعية

إذا لم تختف المثالية بشكل كامل كحركة فلسفية في أميركا، فالفضل في ذلك يعود الى جيمس. أ. كرايتون(١٨٦١ - ١٩٢٤) والى الوعي الديني الأمريكي. وتعبر مثاليته عن الشكل الآخر للمثالية أي المثالية غير اللاهوتية أو المثالية التأملية «الموضوعية كما صاغها «كرايتون», الذي أبدى باستمرار حرصاً شديداً على التحدث عنها كفيلسوف لا كلاهوتي[٢]. والمثالية الموضوعية تذهب الى أن الروح أولية والمادة ثانوية ومستمدة منها، وهي تتميز عن المثالية الذاتية لأنها لا ترى أن المصدر الأول للوجود هو العقل الانساني الشخصي، وإنما ترى أنه وعي موضوعي من عالم آخر هو «الروح المطلق» أو «العقل الكلي»[٣].

ووجه النظر هذه قد تخالف رأي كرايتون بخاصة وأنه يميز بين نوعين من المثالية: الأول الذي يطلق عليه اسم «المذهب الذهني» الذي يرد الأشياء المادية الى ظواهر سيكولوجية، أي الى حالات الوعي أو الى الأفكار، ولأن العالم المادي لا يمكن رده، دون خلف واستحالة، الى أيه حالة من حالات وعي الفرد المتناهي، فإن فيلسوف الذهن منساق، لا محالة، الى أن يسلم بعقل مطلق، وأوضح نموذج لهذا النوع هو فلسفة «باركلي». أما النوع الثاني الرئيسي من المثالية فهو «المثالية الموضوعية» التي لا تحاول أن ترد ما هو طبيعي الى ما هو سيكولوجي، وإنما تنظر الى الطبيعة، والذات والذوات الأخرى، على أنها ثلاثة أشياء متميزة، لكنها لحظات مترابطة ومتكاملة، أو عوامل داخل التجربة، وتحاول المثالية الموضوعية أن تكشف مضامين هذا البناء

(١) هولمز، روبرت ل. : النظرية البراجماتية لرويس «الأنا العليا والضمير», ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠, ص٢٢٦.
(٢) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص١٨١.
(٣) ينظر: روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ص٤٥٦.

الأساسي للتجربة الذي لا يمكن من خلالها رد الطبيعة الى الذهن، لأن الطبيعة لا يمكن أن تكون مغايرة للذهن، بل إنهما - الطبيعة والذهن - مرتبطان بالتبادل(١).

وهكذا قد جعل كرايتون مثاليته - التي استلهمها من الفلسفة التأملية كما عرضها الفيلسوف الانجليزي برنارد بوازنكيت(٢)) - على نقيض من المثالية العقلية والمثالية التعددية، وقد انتقدهم لإقامة حججهم انطلاقاً من نتاجات التجربة - المعطيات (الموجودات) - بدل الصعود الى ما هو أعلى. وحتى العقل وبالأخص «العقل المطلق» الذي قالت به المثالية المطلقة، فيرى «كرايتون» أنه حتى تكون مقولة «العقل المطلق» ذات دلالة، يجب أن تتولد من سيرورة (التجربة النقدية) وأن تكون مبررة من خلالها. ويرى كذلك أن العقل الفردي لا يمكن أن يكون معزولاً عن عقول الأفراد الآخرين، وبالتالي لا ينفصل عن الطبيعة. وهذا ما اتاح «لكرايتون» من تعريف التجربة النقدية بوصفها «تفسيراً أو كشفاً للحقيقة، وفهماً لعقول الناس الآخرين ووعي العقل لطبيعة مهارته الخاصة»(٣), وبها تكون الفلسفة - من وجهة نظره - إذا شاءت أن تكون فلسفة على الحقيقية، عليها أن تصبغ وقائعها بالصبغة الإنسانية، بمعنى أن تنظر اليها من زاوية تجربة إنسانية تامة واعية بذاتها، وذلك لأنه من هذه الزاوية وحدها يمكن أن تجد لهذه الوقائع معنى(٤).

وعلى أثر هذه النظرة الانسانية والطبيعية، تقترح المثالية التأملية نظرية لطبيعة التجربة المعرفية، والتي تعني: تأكيد تجربتي وتجربة الناس الآخرين وطبيعة الواقع وهذا لا يعني بحسب المثالية التأملية، أن كل تجربة تفشي الطبيعة الكاملة للواقع والدلالة الكلية لعقل جاري، بل هي لا تفشي بكل حال تجربتي الكلية، بمعنى أنها لا تتوصل لتجريب دلالتي الكاملة. وعلى أساس هذا المبدأ جاءت التجربة بالمثالية التأملية على نوعين(٥):

١. تجربة موضوعية: بمعنى انها تكفي لتجعلني افهم الآخر وافهم عالم الاشياء.

(١) ينظر: كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، مج٨, ص٤٢١ - ٤٢٢.

(٢) بوازنكيت(١٨٤٨ - ١٩٢٣): فيلسوف انجليزي تأثر في مثاليته بهيجل، وحاول أن يقيمها على أساس من التجربة، إذ لا وجود في نظره لفكر خالص أو لمنطق خالص، فالمنطق هو معرفة بنية الأشياء، وهو ما يجعلها قابلة لأن تتعقل. أهم مؤلفاته «المعرفة والواقع» ينظر: طرابيشي، جورج: معجم الفلاسفة، ص٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) نقلاً عن: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص١٦٦.

(٤) ينظر: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص٣٠٨.

(٥) ينظر: ديلودال، جيرار: الفلسفة الأمريكية، ص ١٦٦.

٢. تجربة نقدية: تعرف حدودها الخاصة، أي ان لها المقدرة على اكتشاف عيوبها الخاصة، التي تقوم بإصلاحها باطراد.

فضلا عن ذلك، تتصور هذه المثالية أن التجريبية الوحيدة التامة هي فهم التجربة الإنسانية في مجراها التاريخي، التي وفقت بين تحليل نقدي للمقولات (التراث الكانطي) وبين تصور تاريخي للفكر الإنساني (التراث الهيجلي). وعلى هذا النحو اتحد منطق نقدي مع فلسفة للتاريخ ليشكلاً نظرية للتجربة ككل عضوي، في الفرد وفي المجتمع معاً. وبذلك نرى أن «كرايتون» يحبذ أن يكون التفكير اجتماعياً فهو لنفس السبب يجب أن يكون تاريخياً، فاستمرار التجربة ووحدتها يجب أن يغدوا أمراً مسلماً به ندركه جميعاً. فالتجربة من الناحية الاجتماعية لديه ترفض القول بانعزال الفرد عن المجتمع، وخاصة في مجال العمل، إذ يرى أن في كل مجال من مجالات البحث ينمو من خلال التآلف العقلي والتعاون العملي وهما برأيه أمران جوهريان للتقدم الحقيقي، الذي ينطوي على القول «بأن من الضروري في العمل تجميع كافة القوى فيه، لا كعدد من الأفراد المنعزلين، بل كمجموعة اجتماعية من العقول. وقد تعلمنا أن عزل الانسان لنفسه عقلياً، يجعل عمله غير مثمر»(١).

وعلى أثر ذلك يذهب «كرايتون» للقول: «الذهن كلٌ، وإذا دلت بعض أشكال التجربة على طبيعته الاجتماعية، لشق علينا أن نتوقع أن نجده في أي جانب من جوانب هذه التجربة منعزلاً ومتركزاً على ذاته. ومع ذلك فثمة ميل في التفكير الشعبي وفي التحليل النفساني الى النظر الى الذهن المفكر على إنه شكل خاص من الوجود، محتوى على نحو ما في بدن، مؤدٍ وظيفة المخ. وكما إن بدناً يجعل بدناً آخر خارجة في المكان نفسه فكذلك الذهن المفكر للفرد يعتبر منعزلاً، مانعاً، منطوياً، ويؤخذ المفكر على إنه كائن مؤثر للوحدة يصارع مشكلاته وحدة، من غير عون. ويظن إنه بقوة ذهنية يخلق الحقيقة من خلال تحليله وتأملاته»(٢).

ويجيب بذلك بالقول «وأنا اعارض هذا النزاع، وأود أن أبين أن التحقق يتضمن دائماً، بطريقة مباشرة أو غيرة مباشرة، تعاون وتفاعل عدد كبير من الأذهان. فالفرد يستطيع بعون أفكار غيره من الناس وبهديها أن يحرر نفسه من الاوهام الذاتية والتعميمات المتعجلة، ويصل بذلك الى الحقيقة الكلية والنتيجة ليست طريفة بمعنى أنها انبثقت كلها من مخه، ولكنها ثمرة أذهان

(1) Creighton, James Edwin ,Studies in Speculative Philosophy, N. Y 1925, 1925,P. 7.

(٢) نقلاً عن: شنيدر، هربرت: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص٣٠٧.

عديدة تعمل معاً»[1], وهذه النظرية الاجتماعية القائمة على رفض انعزال الفرد عن المجتمع، والفصل ما بين العقل والتجربة عند «كرايتون» قد وجد صداها في الكثير من الفلسفات الواقعية الأمريكية لا سيما الفلسفة البراجماتية التي ترفض القول بالثنائيات المنعزلة بعضها عن بعض.

وهكذا بدت لنا الفلسفات المثالية الأمريكية المعاصرة بحلتها الجديدة، فكانت بمثابة ردة فعل ضد المثالية الذاتية من جهة، وبمثابة أنصار المثالية الهيجلية والتطورية الدارونية من جهة أخرى. ولكنها كانت تسعى بتجديد الافكار المثالية بما يتناسب واقع الحياة الأمريكية، حتى لا يغترب الفرد في عالم الغيب المثالي، من خلال محاولتهم ربط الواقع التجريبي المتغير بأذهاننا. أو كما يقول صاحب كتاب «الفلسفة انواعها ومشكلاتها», هنترميد: «من الأفكار المثالية الأساسية، الاعتقاد بأن أذهاننا والعالم الفكري الذي تتحرك فيه ترتبط بالواقع على نحو وثيق. . . ففي نشاطنا العقلي أو الذهني نقترب كل الاقتراب من تلك الفاعلية التي تشكل الكون. فإذا شئنا نعلم ما يكمن في قلب العالم، فعلينا أن نتأمل داخل انفسنا. ففي أذهاننا ونفوسنا نحن، وفي طبيعة الشخصية الإنسانية، نجد أوضح تعبير عن طبيعة هذه الفاعلية الشاملة»[2]. عليه فإن الفيلسوف المثالي لا بد أن يحافظ على التمييز بين الذاتية والموضوعية، وينظر الى التجارب المكانية على أنها تجارب الأشياء الحقيقية في العالم، ليس كمشاعر أو أحاسيس لها وجودها بطريقة غامضة خارج الفضاء وفي العقل، يرى أن قوانين الطبيعة وطرقها وعملياتها هي ما هي عليه، وليس ما قد نتخيله في جهلنا أن تكون عليه، وأن الأشياء لا تنشأ في الظهور لتكون معروفة، والطبيعة لا تنشأ من جديد مع كل اكتشاف ثوري في العلم، صحيح أن جزء من مهمته الكشف والاظهار، لكن عليه أن لا ينظر الى العالم المادي على أنه غير واقعي، لأنه بالمقابل سيصبح النظام العقلي نفسه غير واقعي[3]. وهذا ما وجدنا عليه الفلسفة المثالية الأمريكية التي لا تنفصل انفصالاً تاماً عن الواقع المادي التجريبي، لتفسر الأشياء المطلقة بشكل عقلاني وتجريبي.

(1) Creighton, James Edwin,p. p50 - 51

(٢) ميد، هنتر: الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مكتبة مصر، مصر, ١٩٦٩, ص٧٠.

(3) barrett, Clifford: contemporary idealism in America, The Macmillan company, New York, 1932,p. p26.

الخاتمة

وفي ختام بحثنا هذا توصلنا الى رؤية نهائية حول الفلسفة المثالية الأمريكية المعاصرة وهي أن هذه الفلسفة كانت مزيج من المثالية الروحية والواقعية التجريبية، ترنو الى تغطية الواقع بلمسة روحية مثالية شفافة، التي يفتقر لها افراد العالم الجديد. وفقاً لذلك قدم ممثليها باتجاهاتهم تفسيراً للواقع الأمريكي يفوق تماماً ممارساتهم وثقافتهم المادية التي هيمنت على حياتهم الفكرية والعملية، وعمدت الى تقييد رؤاهم نحو الأهداف الرأسمالية - الاقتصادية، بشكل انتفت معه تلك اللمسة الروحية والدينية, - التي ظهرت في البدايات الأولى للفكر الأمريكي - المتمثلة، بإيمان الإنسان بحقيقة التفكير بالجوانب الدينية العقلانية المُثلى للواقع والحياة ككل. وهكذا كان سبب اعادة احياء هذه الفلسفة الروحية كرد فعل على الواقع المادي الذي هيمن وسيطر بكل قواه الآلية والتقنية على الروح الإنسانية التي بدت تستلب في ظل التطورات التي شهدها هذا العالم الجديد.

وليس ذلك فحسب، فإن الاهتمام بالتراث الفلسفي التقليدي كان سمة واردة في الجامعات الأمريكية التي تبنت بصورة اساسية الفلسفات المثالية كأساس في اطروحاتهم ورسائلهم في الفلسفة، لاسيما الفيلسوف افلاطون وكانط وهيجل، فنجد أنه ما من اتجاه فلسفي وما من فيلسوف امريكي سواء أكان مثالي أو واقعي - براجماتي إلا وكانت مؤلفاته يتردد صداها الى مثاليات الفكر الغربي التقليدي، سواء بالنقد أو بالتحليل أو بالتفكيك والبناء، أو بالأخذ منها قد المستطاع في بناء فلسفاتهم، هذا دليل واضح على مدى اهميتها، واتساع مداها المعرفي والمنطقي في مد الفلسفة بالكمال الروحي، لذا نجد عدم تجاوزها من قبل فلاسفة الفلسفة الأمريكية المعاصرة، كونها تعد أساساً فكرياً لبناء طروحات فلسفتهم المثالية منها وحتى الواقعية.

المصادر والمراجع

١. الانصاري، احمد: مقدمة كتاب الجانب الديني للفلسفة، تأليف جوزايا رويس، ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط٢ , القاهرة, ٢٠٠٩.

٢. الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج٥, المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ب - ت

٣. بولر، بول. ف. : الحرية والقدر في الفكر الأمريكي(من إدواردوز إلى ديوي), ترجمة إسماعيل كشميري، مراجعة نور الدين الرازي، مكتبة الانجلو المصرية مصر, ١٩٧٨.

٤. جلال، شوقي: العقل الأمريكي يفكر(من الحرية الفردية الى مسخ الكائنات), مكتبة الاسرة، مصر, ٢٠١٠

٥. جينوفا، أ. ك. : البناء الأمريكي للفلسفة المعاصرة، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠.

٦. ديلودال، جيرار: الفلسفة الامريكية، ترجمة جورج كتورة والهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١, بيروت - لبنان, ٢٠٠٩.

٧. رايت، وليم كلي: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام, , التنوير للطباعة والنشر. ط١, بيروت - لبنان, ٢٠١٠.

٨. رشوان، محمد مهران: مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة، القاهرة, ١٩٨٤.

٩. روزنتال، ويودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ومراجعة صادق جلال العظم وجورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت, (ب. ت).

١٠. رويس، جوازيا: روح الفلسفة الحديثة، ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة, ٢٠٠٩.

١١. رويس، جوزايا: العالم والفرد(المفاهيم الأربعة التاريخية في الوجود), مج١, ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة, ٢٠٠٨.

١٢. رويس، جوزايا: الجانب الديني للفلسفة، ترجمة احمد الانصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط٢ القاهرة, ٢٠٠٩.

١٣. ري، جوناثان، وأرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، مراجعة زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، ط١, القاهرة, ٢٠١٠,
١٤. سبيريدج، ت. ل. س. : الصور المميزة في الفلسفة الامريكية، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠.
١٥. شنيدر، هربررت: تاريخ الفلسفة الامريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة, , ١٩٦٤.
١٦. طرابيشي، جورج: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط٣, ٢٠٠٦.
١٧. فلاور، اليزابث: حوار بين العلاقات الهامة بين الواقعيين والبراجماتيين، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠.
١٨. فلوولنج، رالف. ت. : الفلسفة الشخصانية، ضمن كتاب فلسفة القرن العشرين(مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة), اعداد داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، مصر, ١٩٦٤.
١٩. كاز، بيتر، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال٢٠٠عام، ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتب الأنجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠.
٢٠. كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة من (بنتام الى رسل), مج٨, ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١, ٢٠٠٩.
٢١. كوليه، أزفلد: المدخل الى الفلسفة، ترجمة ابو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة, ١٩٤٢.
٢٢. لامبرت، فرانك: الدين في السياسة الامريكية، ترجمة عبد اللطيف موسى أبو البصل، دار نمو للنشر، الرياض,٢٠١٥.
٢٣. محمود، زكي نجيب: حياة الفكر في العالم الجديد، القاهرة، دار الشروق, ١٩٨٢.
٢٤. مرقس، سمير: رسالة في الأصولية البروتستانتية، مكتبة الشروق، ط١, القاهرة, ٢٠٠١.
٢٥. منتاجيو، وليم ب. , قصة الواقعية الامريكية، ضمن كتاب فلسفة القرن العشرين(مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة), اعداد داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، مصر, ١٩٦٤.
٢٦. موريس، تشارلس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة ابراهيم مصطفى ابراهيم، مؤسسة

شباب الجامعة، مصر - الاسكندرية, ١٩٩٦.

٢٧. ميد، هنتر: الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، مكتبة مصر، مصر, ١٩٦٩.

٢٨. هولمز، روبرت ل. : النظرية البراجماتية لرويس» الأنا العليا والضمير», ترجمة حسني نصار، مراجعة مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة, ١٩٨٠.

٢٩. وسب، فان ه. ب. : الحكماء السبعة، ترجمة يوسف الخال وانيس فاخوري، دار مجلة شعر - المكتبة العصرية، ط١, بيروت - لبنان, ١٩٦٣.

٣٠. وولف، أ. فلسفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر,. ط٢, القاهرة, ١٩٤٤.

31. Creighton, James Edwin ,Studies in Speculative Philosophy, N. Y 1925.

32. barrett, Clifford: contemporary idealism in America, The Macmillan company, New York, 1932.

33. Dewey, John: Essays in Experimental Logic, Dover Publications, N. Y, U. S. A, 1953.

٣٤. موسوعة ويكيبيديا, www.ar.wikipedia. org.